السيد جعفر مرتضى العاملي

تفسير سورة البينة



دروس في تفسير القرآن الكريم

المركز الإسلامي للدراسات

تفسير سورة البينة

الطبعة الأولى

٢٠١٨م - ١٤٣٩هـ

المركز الإسلامي للدراسات
لبنان - بيروت - الضاحية الجنوبية - أوّل حي ماضي
بناية حجازي - ط1 - تلفاكس: 00961.1.274519
البريد الالكتروني: alhadi2@hotmail.com

المنشورات: بيروت - بئر العبد - سنتر الانماء 3 - 00961 70995421
البريد الالكتروني: dirasat14@gmail.com

تفسير سورة البينة

السيد جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله محمد وآله الطيبين الطاهرين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، والشهداء والصدِّيقين، والعلماء المكرَّمين، والأخيار والأبرار والصالحين..

وبعد.. فقد منحنا الله من فضله فرصة القيام بإطلالة سريعة على رحاب السورة المباركة المسماة بـ «سورة البيِّنة»، وتسريح النظر في باهر روائعها، وإنعاش الروح بنسائم مرابعها.. فبهرت العقول بمعانيها، وطاشت الألباب بمدهشات مغانيها، وأغشت العيون أنوارها، وزخرت بغوالي اللآلي بحارها، وغرَّدت بجلال الله وعظمته أطيارها.

ولكن أين وأنَّى نستطيع استخراج الروائع والبدائع من ذلك وسواه؟! ونحن نعاني من صدأ القلوب، بسبب كثرة الذنوب.. وقد تحوَّلت البصائر إلى مقابر، وانقلب البصر خائباً وخاسئاً وهو حسير..

فيا ربنا ألهمنا مداواة أنفسنا، وأزل هذا الختم عن قلوبنا وسمعنا، وبدد الغشاوة عن بصائرنا.

ولكي لا أسترسل في التعريف بفادح الخسارة، وعظيم المرارة، فقد آثرت أن أعلل نفسي ببعض الأمل، بالتوسل بالعمل على نضد بعض ما لمحه بصري

الكليل من درر هذه السورة المباركة.. لعل ذلك يشفع لي يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

وهي شذرات نثرت على شكل دروس، كنت قد خصصت بها بعض الإخوة المؤمنين، ثم استُخْرِجت من أشرطة التسجيل، وأعيد النظر فيها، فضمتها أو ضمت أكثرها الصفحات التالية..

شهر جمادى الأولى 1439هـ ق

شهر شباط 2018م ش

جعفر مرتضى العاملي

تمهيد

مكِّيَّة أم مدنيَّة؟!:

كثيراً ما يسأل السائلون عن السورة التي تعنيهم: هل هي مكيَّة، أم مدنيَّة؟! وهذا السؤال آتٍ في سورة البيِّنة أيضاً.

ونجيب:

بأن ثمة خلافاً حول مدنيَّة هذه السورة ومكيَّتها..

فالذين قالوا: إنها مدنيَّة، استدلوا بما يلي:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾، لأن التعامل بوجوهه المختلفة مع أهل الكتاب، إنما كان بعد الهجرة إلى المدينة، ولم يتحدث القرآن في العهد المكي عن أهل الكتاب..

ويجاب:

أولاً: بأن هذا غير دقيق، فقد ورد ذكر أهل الكتاب في سورة العنكبوت ـ وهي سورة مكية ـ قال تبارك وتعالى: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[1].

---

(1) الآية 49 من سورة العنكبوت.

وقال سبحانه في سورة الأنعام: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾[1].

وقال تبارك وتعالى في سورة النحل: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[2].

والعنكبوت، والأنعام، والنحل سور مكيَّة.

ثانياً: إنهم يقولون: إن ورقة بن نوفل كان نصرانياً، وكان يعيش في مكة.

فوجود هذا النصراني في مكة، يبطل الزعم الذي يقول: لم يكن لأهل الكتاب وجود في مكة، ليتعامل النبي «صلى الله عليه وآله» معهم، أو ليتحدث عنهم.

ثالثاً: كما أن الحديث عن أهل الكتاب في السور المكية لا محذور فيه، وقد تحدث عن الصابئين، وغيرهم، وتحدث عن المجوس، ولم يكن هؤلاء وأولئك لا في مكة، ولا في المدينة.

الدليل الثاني على مدنيَّتها: أن الزكاة قد ذكرت في هذه السورة، وإنما فرضت الزكاة في المدينة بعد الهجرة..

ونجيب:

بأن هناك آيات عديدة وردت في سور مكية ذكرت فيها الزكاة، فراجع

---

(1) الآية 146 من سورة الأنعام.

(2) الآية 118 من سورة النحل.

على سبيل المثال:

1 ـ الآية 156 من سورة الأعراف.

2 ـ الآيتان 31 و 55 من سورة مريم.

3 ـ الآية 73 من سورة الأنبياء.

4 ـ الآية 4 من سورة المؤمنون.

5 ـ الآية 3 من سورة النمل.

6 ـ الآية 39 من سورة الروم.

7 ـ الآية 4 من سورة لقمان.

8 ـ الآية 6 من سورة فصلت.

ويشهد على أن المراد هو الزكاة الواجبة:

أولاً: إن الآية التي في سورة فصِّلت قد اعتبرت الذين لا يؤتون الزكاة، ويكفرون بالآخرة مشركين.. وهذا ربما يكون في الزكاة الواجبة.

ثانياً: إن إرادة مطلق النماء، استناداً إلى المعنى اللغوي.. يجعل أمساك كل نماء يحصل للإنسان غير جائزٍ، ولم يقل بهذا أحد.

الدليل الثالث: ما ذكره الرازي في تفسير آيات هذه السورة، فقد زعم: أن الآية الأولى من هذه السورة من أشكل آيات القرآن، بل هي أشكل آية فيه، لأن هذه الآية تناقض ـ بزعمه ـ الآية رقم 3 و 4 وما بعدها في نفس السورة.

وقد صَعُب على الرازي حلَّ هذا التناقض، كما صَعُب على من تبعه ممن هم على مثل نهجه..

وتصوير التناقض الذي ادَّعاه: أن الآية التي في أول السورة تقول: إن البيِّنة إذا جاءت الكافرين من أهل الكتاب، فإنهم يؤمنون، وينفكُّون عن الكفر والشرك، إنصياعاً للبيِّنة..

لكن قوله تعالى ـ بعد ذلك ـ: ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾.. يدل على أن الإنفكاك عن الكفر والشرك لم يحصل، بل الذي حصل هو التفرق والإختلاف، فأين الإنفكاك الذي تحدثت عنه الآية الأولى؟!

والجواب على هذا التناقض المزعوم، الذي يصعب على الرازي وأتباعه حلّه:

إن الآية الأولى تقول: إن البيِّنة إذا جاءت، فإن انفكاك الكفار من أهل الكتاب، والمشركين عن كفرهم يصبح ممكناً، لأن حجَّتهم تضعف، ويصير هناك مجال للأخذ والرد معهم، فيؤمن منهم من يؤمن، ويعاند من يعاند، ويجحد الحق من يجحد عن علم ويقين منه.

فليس في الآية الأولى ما يدل على أن المراد بالإنفكاك: هو إعلانهم جميعاً الإسلام.. فلعل المقصود: هو التزلزل والضعف، وظهور تفاهة حجَّتهم، وخواء ذرائعهم، وسقم وعقم محاولاتهم.

فالمراد بالآية: أن البيِّنة تُحدِث الإنفكاك الواقعي.. فلا يبقى لديهم سبيل مرضي عند العقلاء للبقاء على الكفر.. إلا على سبيل الجحود الواضح، والعناد الفاضح لهم.. لاسيما وأنهم كانوا يقولون للمشركين: إذا بُعث نبي آخر الزمان سوف نؤمن به وننصره، وننتقم منكم، فلما بعث «صلى الله عليه وآله»، وظهرت

معجزته، وجاءهم ما يحتِّم عليهم الإنفكاك عن الكفر، وأن يستجيبوا للبيِّنة، نكثوا عهدهم، وخاسوا بوعدهم، وبئس للظالمين بدلاً.

الفصل الأول

الكفار والمشركون: عناد ولجاج..

بداية:

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

ذكرنا في تفسير سورة الفاتحة بعض ما يرتبط بتفسير آية: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾، فلا حاجة إلى إعادة ذلك هنا..

ونكتفي بالإحالة على ما ذكرناه هناك.

من أهداف السورة:

قد يكون من أهداف نزول هذه السورة هو:

أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد بُعث في أمة يهيمن عليها الكفر والجهل، وتشيع فيها المعاصي، وارتكاب الموبقات، والإنصياع للعصبيات، ويشيع فيها فقدان الأمن، والدين، والأخلاق، والقيم الإنسانية، ويظهر الجهل والضعف، والتفكك، والفقر، وما إلى ذلك.

فأراد الله تعالى: أن يرسم للإنسان صورة الواقع الذي يعيشه، ويحدد له أيضاً معالم النهاية التي سوف ينتهي إليها، ويبيِّن له الصلات بين هذا الواقع وتلك النهاية، لكي يكون الإنسان نفسه على بصيرة من أمره، ويعرف أين يضع قدمه،

ليتمكن من إدراك المسافة بينه وبين الغاية التي سوف ينتهي إليها..

وقد اعتمد في بيانه لهذا المسار والمصير، على تقديم النموذج والتجربة الحيَّة والواقعية من خلال تقديم النموذج والمثال، المستل من حركة الأمم في طريق الهدى، أو تنكبها له، أو انحرافها عنه، حركة واقعية صاغتها، وهيمنت عليها السنن التي جرت في الأمم السالفة، لكي يمثل ذلك الدليل والسبيل لاقتناع الناس: بأن هذه السنن تبقى حاضرة ومؤثرة في حياتهم، وفي رسم مسارهم، وضبط حركتهم في مسيرهم إلى مصيرهم.

فعليهم أن يميِّزوا بين اختياراتهم في مجال الصواب والخطأ، وأن يرصدوا آثارها، ويأخذوا العبرة منها.

وإذن.. فلا يمكن اعتبار الحديث في هذه السورة وسواها، عن الرسول وبعثته، وأحوال قومه، ومواقفهم، ومعاناته معهم.. لا يمكن اعتباره حديثاً عادياً، أو عابراً.. بل هو حديث تعليم وعبرة، ومعرفة، وخبرة، وتحذير، وتبشير، ووضع الإنسان أمام خياراته، وارتهانه بها..

وهو سبيل هداية، ورعاية، وتربية، وضبط، وتحديد مسؤولية، وإقامة حجة.

لم يكن: لماذا؟!:

إن أول ما يطالعنا في هذه السورة المباركة هو قوله تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾، ولم يقل: الذين كفروا لا ينفكون، أو لا ينفك الذين كفروا الخ.. ربما لأن هذه التعابير قد يفهم منها إرادة الإخبار عن استمرار كفرهم، وشركهم، لأن الإنفكاك هو انفصال شيء عن شيء، وقوله: لا ينفك يفيد استمرار ذلك الإتصال أيضاً.

وقد يقال: إن التعبير بالإنفكاك، يفيد شِّدة الإتصال بين الشيئين.. كما أن نفي الكون «لم يكن» كأنه يشعر بأن هذا الإنفكاك ليس من طبعه، ولا هو من حيثيات كينونته ووجوده.. وسيأتي هذا الإنفكاك لو حدث كأنه بلا مبرر، أو موجب، ولو بنظر الكافرين والمشركين.. فإذا قال: لم يكن الشيء منفكاً إلى أن يحصل كذا.. أفاد أن ثمة شدَّة معها إحكام بدرجة أكبر من المعتاد، لوجود موجبات بقائه واستمراره، بقرينة كلمة «لم يكن».

وربما كان الذي أوجب هذا الإحكام من الأمور العائدة إلى طبع الإنسان، وخُلقه، أو حالاته النفسية، حيث ترسّخ حبه للشرك والكفر، والإنحراف، لأنه اعتقد أنه يُسمح له بالإنغماس في بعض شهواته، ويستجيب لما تتطلبه غرائزه، أو لأنه ينسجم مع بعض نقاط الضعف في نفسه، أو غير ذلك مما يكون سبب ابتلاء الإنسان به هو الإنسان نفسه، بسوء اختياره، وقلة تدبُّره، وعدم اعتباره.

وتتعاظم المشكلة، بتراكم حالات الإرتكاب، والإستمرار على ممارسة الإنحراف حتى يتحوَّل إلى عاهة يصعب التخلُّص منها، إلا بإرادة صارمة، وحازمة، وبذل جهد، واستحضار عناصر من شأنها أن تعينه على تهوين الأمر، وتذليل الصعاب.. لكي يستعيد عزيمته، وتقوى روحه، وتتماسك شخصيته، ويتخذ قراره بمواجهة نفسه الأمَّارة بالسوء، واستعادة القرار منها ليضعه في يد النفس اللوَّامة والهادية، لتصبح هي صاحبة القرار الحازم والحاسم.

الذين كفروا:

وهنا سؤال آخر يقول: تقول الآية المباركة: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾.. فلماذا لم يقل: «لم يكن الكافرون والمشركون»؟! ولماذا جاء بـ «الاسم الموصول»، وجعل

صلته الفعل الماضي؟!

ويجاب:

أولاً: إن المطلوب هنا: الإشارة إلى بعض الخصوصيات التي قد يكون منها بيان أن كفر الكافرين كان باختيار وقرار منهم.. ولم يفرض عليهم من قبل قوة مهيمنة، أو من سلطان قاهر، أو بيئة قوية التأثير، يمكن أن ينسى الإنسان فيها نفسه، ولا يخطر على باله سوى ما يراه ويعيشه فيها.

أو الإشارة إلى أن قصور الفهم، وعدم القدرة على التمييز، أو السذاجة في الفهم، أو الإستغراق في ظلمات الجهل، قد ساقه إلى الكفر، وربما أثَّر عليه وخدعه بعض من يثق بهم، فساقه إلى ما انتهى إليه من الكفر والضلال.

ثانياً: ربما كان الهدف أيضاً: هو الإلماح إلى أن الكثير مما يقال عن وجود أسباب تسوق إلى الكفر والشرك غير دقيق، بل الموجود هو تأثير بعض الأمور في إيجاد نوع من الغفلة، وربما كان لدرجة السذاجة دور في هذا الأمر أيضاً.

ولكن الإكراه والإجبار الذي يعني أسر الإرادة، وسلب القدرة على الإختيار في أمور الدين والإعتقاد أمر لم يقع، أو غير ممكن الوقوع.. فإن الإكراه لا يزيل الإيمان من القلوب، ولا يزرع الكفر فيها بصورة تكوينية، إذ لا سلطان لأحد على قلب أحد، إلا الله سبحانه.. وإنما يكون الكفر اللساني الصوري تحت وطأة الإكراه فقط.

ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[1].. فالأمر هنا يعود

---

(1) الآية 255 من سورة البقرة.

للفرد بما هو فرد.. فهو الذي يختار ويقرر لنفسه الكفر أو الإيمان، وهو الذي يطالب ويحاسب على ما يختار ويقرر.

والرجل الذي كان يكتم إيمانه من آل فرعون، وعمار، وأبوه ياسر، وأمه سميَّة، وغيرهم كثير.. شواهد على ما نقول.

وحسبك من ذلك: آسية بنت مزاحم، زوجة فرعون، وهو الرجل المستكبر، المدَّعي للربوبية، الذي كانت لديه الأموال، والرجال، والسلطة، والمغريات، والمحفِّزات، والروادع، والموانع، وكل أسباب القوة والقهر، والتأثير، لم يستطع أن يسلب الإيمان من قلب زوجته آسية التي قالت: ﴿**رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ**﴾[1].

ثالثاً: إختار الفعل، الماضي وجعله صلة للموصول، ليدل على أمرين:

أولهما: أصل حدوث الكفر بعد أن لم يكن، بل كانت الفطرة على التوحيد والإيمان هي المنحة التي حباه الله تعالى بها تدعوه إلى منع حدوثه..

الثاني: ليدل على أنهم هم الذين اختاروا لأنفسهم هذا الكفر، وأنهم هم الذين بادروا إليه وفعلوه.. ولم يكن يقهرهم أحد عليه من خارج ذواتهم.

ما المراد بالكفر؟!:

وهل المراد بالكفر هنا: الكفر بالله، أو بالنبي «صلى الله عليه وآله»، أو بالنبوَّات كلها.. المساوق للكفر بالدين، حتى مع الإعتقاد بالإله الخالق المدبِّر، أو المراد بالكفر: إنكار الحساب، أو إنكار الضروريات، أم ماذا؟!

---

(1) الآية 11 من سورة التحريم.

أسئلة تحتاج إلى إجابة..

ويمكن أن يقال في الجواب: لعل المراد هنا: الكفر بهذا النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله»، وبالرسالة التي جاء بها، بزعم أنه لم يأت بها من عند الله.

وقد يشهد لذلك: أن هذه الآية وما بعدها تبيِّن: أن كفرهم سوف يستمر إلى أن تأتيهم البينة من الله، وهي رسول الله «صلى الله عليه وآله».. فالبيِّنة هي التي تضعهم أمام خيارين:

ـ إما الإيمان..

ـ أو الجحود عن علم..

لماذا قال: من أهل الكتاب؟!:

وقد يقول قائل: ألم يكن يكفي أن يقتصر على ذكر الذين كفروا، فلا تبقى حاجة إلى قوله: ﴿**مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾؟! بل لا يبقى حاجة إلى ذكر المشركين، فإنهم كفَّار أيضاً؟!

ويمكن أن يجاب:

أولاً: بأنه لو لم يأت بكلمة ﴿**مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ لتوهَّم متوهِّم: أن كل من كان من أهل الكتاب فهو كافر، مع أن من اتَّبع عيسى «عليه السلام» اتِّباعاً حقيقياً ليس كافراً، بل هو من المؤمنين، إلا الذين بلغتهم بعثة نبيُّنا الأعظم «صلى الله عليه وآله»، وأنكروها، وجحدوها..

أما من لم يبلغهم ذلك، أو ماتوا قبل بعثته «صلى الله عليه وآله»، فإن تعبدهم بما جاء به عيسى «عليه السلام» هو المطلوب، والكلام بالنسبة لليهود مع عيسى، ومع نبينا «صلى الله عليه وآله» يكون وفق ما ذكرناه آنفاً في كل

مورد بحسبه، وبما يقتضيه..

ثانياً: لو لم يصرِّح تعالى بكفر أهل الكتاب، لتوهم متوهم: أنهم مرضيون في اعتقاداتهم وغيرها.. فالنص على كفرهم يزيل هذا الوهم.

ثالثاً: قيل: إن المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، وقد روي عن الإمام الصادق «عليه السلام»: أنه سئل عن المجوس، فقال: كان لهم نبي قتلوه، وكتاب أحرقوه.. أتاهم نبيهم بكتابهم في اثني عشر ألف جلد ثور، وكان يقال له: جاماست[1].

وفي نص آخر عنه «عليه السلام» أيضاً: قيل له: فأخبرني عن المجوس، كانوا أقرب إلى الصواب في دهرهم، أم العرب؟!

قال: العرب في الجاهلية كانت أقرب إلى الدين الحنيفي من المجوس، وذلك أن المجوس كفرت بكل الأنبياء، وجحدت كتبها، وأنكرت براهينها، ولم تأخذ بشيء من سننها وآثارها[2].

وفي رواية أخرى عن علي «عليه السلام»: أن الأشعث بن قيس سأله: كيف

---

(1) راجع: وسائل الشيعة (آل البيت) ج15 ص127 و 126 و (الإسلامية) ج11 ص97 و 96 ومستدرك سفينة البحار ج9 ص338 وراجع: بحار الأنوار ج14 ص463 ومرآة العقول ج16 ص121 والبرهان (تفسير) ج2 ص758 ونور الثقلين (تفسير) ج2 ص202 وكنز الدقائق (تفسير) ج5 ص432 والكافي ج3 ص568 وتهذيب الأحكام ج4 ص113 وج6 ص158.

(2) راجع: بحار الأنوار ج10 ص180 وج14 ص462 ومستدرك سفينة البحار ج9 ص337 والنور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين للجزائري ص457.

تؤخذ من المجوس الجزية، ولم ينزل عليهم كتاب، ولم يبعث إليهم نبي؟!

فقال: بلى يا أشعث، قد أنزل الله عليهم كتاباً، وبعث إليهم نبيّاً، وكان لهم ملك سكر ذات ليلة، فدعا بابنته إلى فراشه فارتكبها، فلما أصبح تسامع به قومه، فاجتمعوا إلى بابه، فقالوا: أيها الملك، دنست علينا ديننا فأهلكته، فاخرج نطهرك، ونقم عليك الحد.

فقال لهم: اجتمعوا واسمعوا كلامي، فإن يكن لي مخرج مما ارتكبت، وإلا فشأنكم.

فاجتمعوا، فقال لهم: هل علمتم أن الله عز وجل لم يخلق خلقاً أكرم عليه من أبينا آدم وأمنا حواء؟!

قالوا: صدقت أيها الملك.

قال: أفليس قد زوج بنيه من بناته، وبناته من بنيه؟!

قالوا: صدقت، هذا هو الدين..

فتعاقدوا على ذلك، فمحا الله ما في صدورهم من العلم، ورفع عنهم الكتاب، فهم الكفرة، يدخلون النار بلا حساب، والمنافقون أشد حالاً منهم[1].

ولا نريد أن نستطرد إلى بيان عدم صحة المقولة المتقدم ذكرها حول

---

(1) راجع: الأمالي للصدوق ص424 والتوحيد للصدوق ص306 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج20 ص365 و (الإسلامية) ج14 ص277 ومستدرك الوسائل ج14 ص364 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج2 ص138 والإختصاص للمفيد ص236 وبحار الأنوار ج10 ص119 وج14 ص461 و 439 وج9 ص338 وج40 ص335 وج97 ص66 ونور البراهين ج2 ص152.

تزويج آدم أبناءه من بناته، فقد أثبتنا عدم صحة هذا القول في كتابنا: الصحيح من سيرة الإمام علي «عليه السلام» ج24 ص153 فصل: إمتداد نسل آدم «عليه السلام».. فراجع.

ثالثاً: بالنسبة لتمييز المشركين عن الكفار، وعن أهل الكتاب نقول:

إنما لم يقل: «الذين أشركوا من أهل الكتاب»، ليدل على أن المشركين كانوا مختارين لشركهم، بلا إجبار أو إكراه.. فلعل من أسباب الذهاب إلى الشرك:

ألف: أن الشرك هو المرتبة الأعلى والأكثر قبحاً، والأعظم شراً من كفر أهل الكتاب، حتى لقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾[2]..

والشرك يخالط أكثر الناس، مهما اختلفت أديانهم ونحلهم، وقد روي عن الصادق «عليه السلام» قوله: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل»[3].

وقال تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾[4].. فتكون

---

(1) الآية 13 من سورة لقمان.

(2) الآية 48 من سورة النساء.

(3) معاني الأخبار ص379 ووسائل الشيعة (آل البيت) ج5 ص99 وج16 ص254 و (الإسلامية) ج3 ص409 وج11 ص498 وبحار الأنوار ج68 ص142 وج69 ص96 و 298 وج70 ص358 وج75 ص371 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص398 وميزان الحكمة ج2 ص1438 وتحف العقول ص487 والثاقب في المناقب ص568 والخرائج والجرائح ج2 ص688 ومدينة المعاجز ج7 ص639.

(4) الآية 106 من سورة يوسف.

هذه الآية في سورة البيِّنة أرادت التدرُّج والإنتقال من الأدنى إلى الأعلى.

وهل هناك ظلم أعظم من أن يشرك الإنسان الحجر، والشجر، والجماد، مع الله تبارك وتعالى في العبادة والتقديس، ومنحها صفات الله تعالى، وإعطائها مقام الألوهية، والخلق، والقدرة، والعقل، والتدبير لهذا الوجود كله؟!

ب: إن أهل الكتاب قد بُعث إليهم الأنبياء، وتوفرت لهم الهدايات، وعاينوا الدلالات والمعجزات، فاختاروا الضلال على الهدى، عن سابق علم.. وهذا من سوء اختيارهم.

أما المشرك، فنشأ في بيئة بعيدة عن العلم والمعرفة، وأخذ من الآباء وتأثر بالبيئة، فهو ـ في كثير من الأحيان ـ يعيش الغفلة عن الهدايات الشرعية، وعن الأنبياء ودلالاتهم، وإن كانت الهدايات العقلية والفطرية تبقى حاضرة.. ولكن شهواته وأهواءه، ومصالحه تسهِّل عليه تجاوزها وتجاهلها، والإنصراف للإنغماس في المآثم، وارتكاب العظائم..

ولأجل ذلك لم يشأ في هذه الآية: أن يشير إلى عامل الإختيار الذي لا غفلة معه، ولا شيء يرفعه، لأن هذه تجعل المشرك ليس على حدِّ أهل الكتاب من هذه الجهة.. وإن كان الشرك أقبح في دلالاته وإيحاءاته.. ويكون المشرك من أشد الناس عداوة للأنبياء ومن آمن بهم.

منفكين:

وقوله تعالى: ﴿مُنْفَكِّينَ﴾، يدل ـ كما تقدم ـ على معنى الإتصال والإلتحام المباشر لهم، بكفرهم وشركهم، وأن القضية ليست مجرد ملامسة والتقاء بين شيئين.. وإنما هو اتصال مستمر لا ينفصل إلا بظهور بيِّنة تقطع العذر، وتوضح الأمر، وتزيل الغشاوة.

ويدل على الحاجة إلى مؤثر قوي يحقق الإنفكاك: أن الشرك وعبادة الحجر، والشجر، والجماد، وما إلى ذلك.. مع الإلتفات إلى حالها، ورؤية عجزها، وفقدها للعلم، والإدراك، والعقل، وسائر الكمالات بأدنى مراتبها، وكذلك اختيار الكفر ممن عرف المعجزات، واطَّلع على هدايات الكتب السماوية، وعرف الأنبياء، ورأى صفاتهم، وسماتهم، وعرف نهجهم، وأخلاقهم، وسمع بذلك، أو كان بإمكانه أن يطِّلع عليه، ويهتدي إليه.. ثم صدف عن ذلك، وجحده، وعانده.

نعم.. إن من يختار الكفر، والشرك ـ والحالة هذه ـ ويلجأ إلى تقديس، واعتماد ما ينافي الفطرة، ويتناقض مع حكم العقل، ويصادم الوجدان.. يكون قد أمعن في الغي، وأوغل في ظلمات الجهل، وأصبح يحتاج لانتشاله من وهدة الضياع والهلاك إلى جهد جهيد وتعب، ونصب أكيد وشديد ليشرق عليه نور البيِّنات، والهدايات، ويثوب إليه عقله، وينسجم مع فطرته، وما يرضاه وجدانه.

ويشهد على هذا: أنه سيأتي ـ إن شاء الله ـ في نفس هذه السورة: أنه تعالى حصر ما أمرهم الله به، وبه يدخلون الجنة، ويكونون خير البرية، وبتركه يدخلون النار، ويكونون شر البرية، وهو:

1 ـ أن يعبدوا الله.

2 ـ أن يخلصوا الدين لله.

3 ـ أن يكونوا حنفاء.

4 ـ أن يقيموا الصلاة.

5 ـ أن يؤتوا الزكاة.

وهذه الأمور كلها مما يرضاه الوجدان، وتنتعش وتحيا به الفطرة، ويستحسنه العقل، وهي من أوضح الواضحات، وأبده البديهيات في صلاحها، وخيريتها، وضرورة الإلتزام بها، وإشاعتها.. وهل يستطيع أحد أن يدَّعي أن عبادة الله، والإخلاص له، والإستسلام لإرادته، والتحرر من الخضوع للطواغيت والظالمين، وأن لا يكون المرء عبداً لغير الله، يلحق به ضرراً، أو يشكل عليه خطراً؟! وأن عبادة الحجر والجمادات، والحيوانات تجلب له نفعاً، أو توجب له فوزاً وسعادة، أو رفعاً ووضعاً؟!

وما الذي يخسر الإنسان من إقامة الصلاة، ومن إيتاء الزكاة، وحلِّ مشاكل الناس، وإشاعة روح التكافل والتعاون، وما إلى ذلك؟!

حتى تأتيهم البيِّنة:

ثم أشار تعالى إلى موجبات الإنفكاك عن الكفر، وعن الشرك، وهي ثلاثة أمور:

الأول: البيِّنة المتمثلة ببعثة الرسل، ومعهم الآيات والدلالات، والحجج، والهدايات.. وهو ما أشار إليه حين اعتبر البيِّنة أنها رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وما يأتيهم به من مناهج وتعاليم، ولا يتقوَّل شيئاً من عند نفسه، بل هو يتلو صحفاً مطهرة.

الثاني: بداهة تعاليم دين الله، وموافقتها للفطرة، وانسجامها مع واقع الإنسان، وتلبيتها لمقتضياته، وتناغمها مع خصائصه الإنسانية، وحاجاته في مختلف شؤونه الحياتية.. فإن ظهور ذلك كله مع بداهته ووضوحه، يزعزع ثقة الكافر بكفره، والمشرك بشركه..

وقد أشار تعالى إلى بداهة الحقائق الدينية، وموافقتها للفطرة، وتلبيتها للحاجات الحياتية الواقعية، المختلفة بقوله عز وجل: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾.

الثالث: المعجزة القاهرة للعقول، التي تفرض الإعتراف بالنبوَّة والرسولية.. فإنها تفرض على الإنسان الكافر والمشرك: أن يعيد النظر في حساباته بشكل جدِّي، بداعي الحفاظ على مستقبله، وإزالة المخاطر من طريقه..

فالمعجزة تدلهم على الرسول الهادي، الأمين على وحي الله، الذي يفسّر لهم ما أبهم عليهم، ويبيِّن لهم حقائق الإيمان، ويهذِّب نفوسهم، ويصقل عقولهم، ويصفِّي أرواحهم، ويعمل على دفع الأسواء عنهم، ويعينهم على حلِّ مشكلاتهم.

تأتيهم:

بقي أن نشير إلى أن قوله: ﴿**تَأْتِيَهُمُ**﴾ يدل على أنهم (أعني الكفار من أهل الكتاب، والمشركين) لا يسعون إلى كشف الحقيقة بأنفسهم.. إما لأنهم راضون بما هم فيه، انسياقاً مع أهوائهم ومصالحهم، وممارساتهم، وارتكاباتهم.. فيدَّعون أنهم على الحق، على غير يقين منهم ولا حجة، بل زوراً وعناداً، أو لانخداعهم برؤسائهم، أو بعلمائهم، أو لغفلة بعضهم، أو لقصوره، أو لتوهمه: أن للصنم دوراً في حياته.. ككونه يرزق، أو يشفي، أو ينتقم مثلاً، أو غير ذلك..

بل إنهم حتى لو سعوا لرفع جهلهم، فلا بد من أن تتدخل أهواؤهم وعصبياتهم، ومصالحهم في الإختيار، وفي القرار..

وكل ذلك يعطي: أنه لا بد أن تأتيهم الهداية من خارج ذاتهم، وأن تكون معها وسائلها التي تجعلهم بين خياري الإيمان، أو الجحود عن علم ويقين..

الفصل الثاني

ما هي البيِّنة؟!

رسول من الله:

حيث إن من المعلوم: أن لكل كلمة دلالاتها، وإيحاءاتها المؤثِّرة التي ترجِّح اختيارها في مورد، والتخلي عنها إلى غيرها من مشاركاتها في الدلالة، أو الإيحاء للإختلاف في بعض جهات المعنى، أو حالاته في مورد آخر.. فإن السؤال عن السبب في اختيار كلمة رسول الله، دون كلمة نبي يبقى قائماً وملحاً؟!

وقد يجاب عن ذلك:

أولاً: بأن النبي هو المنبِّئ بما تسكن به العقول الذكية ـ على حد قول الراغب الأصفهاني ـ والنبوة هي سفارة بين الله، وبين ذوي العقول من عباده، لإزاحة علتهم في أمر معادهم ومعاشهم[1].

فكلمة نبي لا تؤدي المعنى المقصود في هذه الآية هنا، كما تؤديه كلمة رسول، حتى لو أضيف إليها كلمة «عن الله»، لأن الإنباء عنه تعالى قد يكون بوسائط قد تقل، وقد تكثر، ومع كثرتها قد لا يؤمن من الخدشة ممن في قلوبهم مرض في دقة وضبط تلك الوسائط، وسلامة ما جاءت به.

أما كلمة الرسول، ففيها إشعار بقرب الصلة للرسول بالمرسِل، بل قد

---

(1) راجع: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص482.

يفهم منها الصلة الحسيَّة في موارد إمكانها، أو ما هو قريب من الحس، حيث يتعذر ذلك، كما هو الحال هنا..

فالدليل العقلي هو الذي أبعد احتمال الصلة الحسيَّة بين الله وبين الرسول، حين يتلقَّى الرسول الأوامر الإلهية.. وهو الذي أفرغ الدلالة اللفظية من معنى المشافهة، حين دلَّ على استحالتها، فتبقى سائر وسائل التلقِّي محتملة.. فقد يكون بواسطة الملك، أو خلق الكلام في الشجر، أو الإلقاء في الروع، أو قراءة اللوح المحفوظ، أو غير ذلك..

فيكون خروج بعض مراتب الإتصال، كطريقة المشافهة على حد الخروج التخصصي بواسطة الدليل اللبي.

وبذلك يعلم السبب في أن الرغبة في إثارات كهذه تتضاءل مع كلمة ﴿**رَسُولٌ مِنَ اللهِ**﴾ إلى درجة الخفاء، أكثر من تضاؤلها مع عبارة «نبي من الله».

ثانياً: إن كلمة «رسول» تفيد: أن ثمة رسالة ورسولاً، ومرسِلاً.. كما أن أول ما يخطر بالبال عند سماع كلمة رسالة: أنها مكتوبة.

وقد أشار تعالى إلى هذه الحقيقة بعدة كلمات ودلالات، فلاحظ:

1 ـ قوله: ﴿**يَتْلُو**﴾، حيث لم يقل مثلاً: رسولاً من الله يقول لهم كذا، أو يأمرهم، أو ينهاهم، أو يحذِّرهم، أو يبشِّرهم، وما إلى ذلك.. فإن التلاوة إنما تكون لأمر مسجل ومكتوب.

2 ـ ثم صرَّح: بأن هذا الذي يُتلى، إنما يُتلى من صحف.. فأكد بذلك: أن الرسولية تستكمل سماتها، وتستجمع عناصرها، بالإخبار عن صحف حاضرة، حيث لم يقل: يبلغ، أو ينقل، أو يأمرهم، أو ينهاهم.

3 ـ ثم أكَّد حقيقة: أن الصحف لها حقيقة عينية، وليست تعبيراً مجازياً، أو معنى كنائياً.. حين وصف حقيقتها بالتطهير، فقال: ﴿**صُحُفًا مُطَهَّرَةً**﴾..

كما أنه قد دلَّ بهذه الكلمة على معنى القداسة، لمناسبة هذه الكلمة لجلال وعظمة الله، من حيث هو مرسِل.

4 ـ ولعل هذا يجعلنا نتلمس هذه الصحف المطهرة، وحقيقتها في اللوح المحفوظ مثلاً، أو في صحف يوجدها الله له، تحملها إليه الملائكة، كما سيأتي.. ويجعلها أمام عينيه، فتكون مرئية له «صلى الله عليه وآله»، وليست مرئية لغيره حين يتلوها..

وكلا هذين الأمرين، أو أحدهما يكون من خصائص نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله».

5 ـ ثم ذكر: أن هذه الصحف اشتملت على كتب قيِّمة.. ربما ليدل بذلك: أن في هذه الصحف كل ما يريده الله سبحانه لعباده، ومن عباده مما يصلح حالهم، ويمنحهم السعادة في الدنيا والآخرة..

وهذا يحتِّم التشريع، والبيان، والتوجيه، ورسم الدلالات والهدايات في جميع شؤون الحياة، ومختلف الموضوعات في تشعباتها، وتفاصيلها، وما فيها من حقائق ودقائق.

وكل موضوع منها قد يحتاج لبيان الهدايات الإلهية فيه إلى كتب، وإلى كشف أسرار، وإظهار غرائب وعجائب..

من الله:

إن قوله تعالى: ﴿مِنَ اللهِ﴾ يهدف إلى إبطال زعم الزاعمين: بأنه «صلى الله عليه وآله» إنما يعلِّمه بشر؟! أو أنه هو الذي يخترع ما جاء به من عند نفسه، كما يفعل الساحر والشاعر؟! أو أنها أساطير الأولين اكتتبها؟!

إلى غير ذلك من ترهات وأباطيل..

فأجاب تعالى هنا: بأنه «صلى الله عليه وآله» رسول من الله..

والمعجزة القاهرة للعقول هي التي تثبت صلة مدَّعي الرسولية بالله تعالى، وتجعل صلة من يجترحها بالله تعالى يقينية، واضحة كالشمس..

وهذا هو السبب في وصفه «صلى الله عليه وآله»: بأنه البيِّنة، لأنهم لا يقدرون على نقضها، وإبطالها في أي حال.

يتلو صحفاً مطهرة:

التلاوة ليست هي القراءة مجردة، لأن القراءة قد تكون بصوت، وقد تكون بدونه..

أما التلاوة، ففيها:

أولاً: معنى الجهر والإعلان.. فلا بد أن تكون بصوت.

ثانياً: ليست التلاوة مطلق القراءة بصوت، بل مع تأنٍ وتمكث.. فقد ورد النهي عن أن نهذَّ القرآن كهذ الشعر[1]. أي نقرؤه بسرعة.. مع أننا أمرنا

(1) راجع: المصنف لابن أبي شيبة ج7 ص186 وشعب الإيمان ج2 ص360 والدر

بتلاوة القرآن..

فالسرعة في القراءة إلى هذا الحد ممنوعة، وقد يكون على التلاوة طلاوة. أي بهجة. ومسحة حسن وجمال، تستدرج الرغبة والميل. ولا يقال: قراءة عليها طلاوة.. فالتلاوة أخصُّ من القراءة.

وللتلاوة أغراض خاصة، منها: الإفهام والتفهيم، ولها جاذبية ولذة.. وتعطي فرصة للتأمل في المعنى، والتفاعل معه.

لماذا لم يقل: عليكم؟!:

وبغض النظر عما تقدم، فإنه تعالى لم يقل: «يتلو عليكم صحفاً».. ربما لأن دينه ودعوته لا يختص بسامعيه، بل يعمُّ جميع البشر إلى يوم القيامة، فلا يتوهمن أحد: أن ما جاء به النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» يختص بمن تلاه عليهم من معاصريه.

وقد يستدل على هذا الزعم الباطل بكلمة «عليهم» لو وردت في الآية، ولو لأجل إثارة الشبهة، وتضعيف درجة الإلتزام والإرتباط بدعوته «صلى الله عليه وآله» لدى الأجيال الآتية من بعده، وخدش يقينهم بشمول رسالته ودعوته «صلى الله عليه وآله» لهم..

المنثور ج4 ص128 والفايق في غريب الحديث ج3 ص395 وغريب الحديث ج2 ص45.

أغراض التلاوة:

وعدا ما قدمناه.. فإن التلاوة قد تكون لأغراض شتى، فقد يتلو الإنسان الصحف لاكتساب المثوبة، أو لأخذ العبرة، أو ليُسمعها غيره ممن هو بحاجة إليها، من دون أن يشعر السامع بأنه هو المقصود بهذه التلاوة، لكي لا ينفر ويستكبر، وليبقى يتعامل مع مضمون ما يسمع بصفاء، ونقاء، وبملء اختياره، ويتمكن من اتخاذ قراره.. وممارسة اختياره.

وقد يتلو الصحف على المؤمنين ليزيدهم بصيرة، ويطهر قلوبهم، ويتلوها على غيرهم، ليقيم عليهم الحُجَّة، ويلزمهم بها..

تلاوة الصحف:

كما أنه تعالى قال: ﴿**يَتْلُو صُحُفًا**﴾، ولم يقل: يتلو ما في الصحف..

أولاً: لأن هذا التعبير قد يوهم: أنه يتلو ما حفظه، أو أخذه من الصحف.. وذلك يثير احتمال الخطأ والنسيان، والزيادة، والنقيصة..

وهذا مما يرغب أهل الباطل بإثارته، لتشكيك الناس، ليتمكنوا من النفوذ إلى ما هو أضر وأخطر، وأدهى وأكبر..

ثانياً: إن هذا أيضاً يثير احتمال أن يكون المراد: أنه «صلى الله عليه وآله» يتلو عليهم صحف إبراهيم وموسى، وربما سواها أيضاً.. لأن مواريث الأنبياء كانت عنده «صلى الله عليه وآله»، وتكون عند أوصيائه «عليهم السلام» أيضاً من بعده، ومن هذه المواريث: خاتم سليمان الذي هو خاتم الملك، وعصا موسى، وزبور داود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وغير ذلك.

الصحف وتطهيرها:

وعن الصحف نقول:

ذكرنا فيما سبق المراد بها، أو ما يحتمل أن يكون مراداً.. ونضيف هنا: أنه تعالى قال: ﴿صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾، فأتى بها وبصفتها منكَّرتين، فلماذا كان ذلك؟!

ويجاب:

أولاً: إنه تعالى قال في سورة أخرى: ﴿**كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ**﴾[1].

أي أن هذه الصحف تحملها الملائكة مع جبرئيل تكريماً، وتعظيماً لها، لإيصالها على هذه الصفة من الجلال والعظمة إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله».

والحال، أن الناس لا يرون الملائكة، ولا الصحف التي يحملونها إليه «صلى الله عليه وآله».. فالتنوين في سورة البيِّنة للتعظيم، والتكريم تماماً كما هو الحال في سورة عبس..

ويشهد لذلك: وصف الصحف بالـ «مطهَّرة» هنا، وهي نكرة أيضاً، لإفادة استغراق الطهارة، والتنويه بأهميتها، من حيث إنها من الله سبحانه.

وكذلك الحال في سورة عبس أيضاً..

ثانياً: لو قال: «الصحف المطهرة» بألف ولام التعريف، لتوهم متوهم:

---

(1) الآيات 11 ـ 16 من سورة عبس.

أن اللام للعهد، أو هي ظاهرة فيه، فيصير المعنى: أنه يقرأ صحف إبراهيم وموسى، وربما غيرها من الكتب السماوية، مع أن المقصود ما هو أوسع وأعظم، وأهم من ذلك.. وهو: التنويه بأهمية وعظمة الحقائق التي اطَّلع نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله» عليها، وقد حواها في كتاب الحقائق الجامع لأسرار الكون والحياة، والتشريع، وكل ما يريد الله سبحانه أن يُطْلِع نبيَّه عليه.

ثالثاً: إن الله تعالى قد بيَّنها في صحف تناسب حال الملائكة، فهي ليست من سنخ القراطيس التي يتداولها البشر، وهي أيضاً نقوش لم ترسم بمداد بشري.. وربما كانت نوريَّة، أو غيرها.. ساطعة، ورائعة، وذات مضامين بالغة الأهمية.. وقد طهَّرها الله تعالى من كل عيب ونقص، واختلال، كما أوضحناه.

مطهرة:

وعدا عما في قوله تعالى: ﴿**مُطَهَّرَةً**﴾ من إشارة إلى جلال وكمال، وعظمة، وقداسة المرسِل، وهو الله تبارك وتعالى.. فإنه أيضاً تنويه بمضامين تلك الصحف، وتعظيم لشأنها، لنقائها من أي رجس في مضمونها، وفي أهدافها، وغاياتها، وفيما تتركه من آثار، وما لها من دوافع، وغير ذلك من الحيثيات والإعتبارات، والجهات.. كما أنها لا يشوبها نقص، ولا اختلال، كما تقدم..

وهذا ما يحتاج إلى بيان وتوضيح، فلاحظ ما يلي:

1 ـ إن الناس بحسب ما اعتادوه وألفوه، وعرفوه بالمشاهدة، والتجربة يكتبون ما شاؤوا في كتبهم وصحفهم، ومنقوشاتهم، وقد يكون فيه الغث والسمين، والصحيح والسقيم، والصادق والمكذوب، والمحرَّف وغيره.. وفيه حق وباطل، وخرافة وواقع، وهدايات وشبهات، وضلالات، وعبث

وجد، وما إلى ذلك..

ولأن هذا هو المشاهد كثيراً، وهو المرتكز في الأذهان، فمن الطبيعي: أنه إذا تطرَّق الحديث إلى الكتب والصحف، ونحوها.. انصرف ذهن الناس إلى ما عرفوه وألفوه..

فوصف الله تعالى الصحف هنا بالطهارة والنقاء، والصفاء.. ليدل على سلامتها من كل شائبة، أو عيب، أو نقص، أوغث، أو سقم، أو كذب، وخرافة، وضلال، وباطل، وعبث، وتحريف، وشبهة، وجهل، الخ ..

2 ـ إنه تعالى قال: ﴿**مُطَهَّرَةً**﴾، ولم يقل: طاهرة.. ربما ليدل على أن الطهارة قد تنشأ عن تعامل عفوي، جارٍ وفق الطبع والسجية، فتأتي مشوبة بالخلل والزلل، والعيب، والنقص، وغير ذلك مما ذكرناه..

وقد تنشأ الطهارة عن عمد وقصد، والتفات، وإرادة إلهية، فلا يختلف المراد ولا يتخلف عن الإرادة.. وتكون الطهارة الحاصلة في هذه الحالة حقيقية، وواقعية، لأن ما يريده تعالى، فهو واقع لا محالة..

وهذا الشق الأخير هو ما تريد الآية المباركة هنا أن تقرره، فعبَّرت بقولها: ﴿مُطَهَّرَةً﴾، الدالة على قصد وإرادة التطهير منه تعالى..

فيها كتب قيِّمة:

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿**فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**﴾ ليضعنا أمام أسئلة عديدة، نبين بعضها على النحو التالي:

السؤال الأول:

ما الفرق بين الصحيفة والكتاب، وهل يكون الكتاب في ضمن الصحيفة؟!

ويمكن أن يجاب:

بأن الصحيفة اسم لما يكتب فيه..

أما الكتاب، فهو اسم للصحيفة مع المكتوب فيها.

ويبدو لنا: أن الكتب هي صحف فيها مكتوبات لها أغراض مهمة وجليلة إلى جانب الكتاب الأساس الذي تكفَّلت الصحف بعرضه، وهو المرتبط بالنظام التكويني العام، المنسجم مع سنن الكون والحياة..

السؤال الثاني:

هل يكون في الصحف كتب متعددة؟!

ويجاب بالإيجاب.. فإن الكتاب ـ كما تقدم ـ هو الصحف التي تضم مضامين ومطالب منسَّقة، وفق الغرض المعيَّن، الذي يُتوخَّى من الكتاب، وقد يكون في الصحف كتاب واحد، وقد يكون كتب عديدة..

السؤال الثالث:

1 ـ إن التعبير بالكتاب قد ورد في كثير من السور المكيَّة، قبل أن تنزل أكثر سور القرآن.. وقد استمر ذكر الكتاب في السور التي نزلت في المدينة أيضاً.. فكيف يخبر تعالى عن نزول الكتاب، وهو إنما نزل بعض منه؟! كما أن بعض الآيات تضمنت الإشارة إلى الكتاب، والإشارة إلى الشيء تشعر بوجوده وتعيُّنه.

ويجاب:

بأن كلمة كتاب يصحّ إطلاقها على ما كتب بتمامه، وعلى ما كتب بعضه، وعلى ما لم يكتب أيضاً، ويطلق على الكتاب الذي نزل كلّه، وعلى الذي نزل بعضه، بلحاظ أنه مكتوب في اللوح المحفوظ..

والكتاب هو المجموع الذي له بداية ونهاية، ولمضامينه نوع من الإرتباط، ويريد الله أن يكون هو النهج للبشر، ويمثل ثقافتهم، ويحوي اعتقاداتهم، وأحكامهم، وفيه نهجهم التربوي، والأخلاقي، ومفاهيمهم، وتاريخهم، وسائر شؤونهم، وما يحتاجون إليه..

ولعل المجموع هو الذي لو رجعت إليه، لوجدت طلبتك فيه، سواء رجعت إليه بما هو مكتوب، أو بما هو محفوظ في الصدور، وسواء أنزله الله تعالى كله على نبيه «صلى الله عليه وآله» ليبلِّغه للناس، أو أنزل بعضه مما اقتضته الأحوال القائمة..

وهذا السبب في إطلاق اسم الكتاب عليه: أنه كان ينزل على الرسول «صلى الله عليه وآله» في صحف يحملها إليه جبرئيل، ومعه لفيف من الملائكة، أو لأنه أيضاً مكتوب في اللوح المحفوظ، وينزله الله تدريجاً حين يحين وقت إبلاغه..

والتعبير بالكتاب يوحي بالثبوت، والبقاء، والإستمرار، والنظم، وبغير ذلك..

2 ـ وقد أورد الكتاب بصيغة الجمع، فقال: ﴿**كُتُبٌ**﴾.. ربما ليدل على تعدد مجالاتها، واختلاف موضوعاتها، واتساع وتشعب تفاصيلها..

وأوردها هنا منكَّرة، ليذهب ذهن السامع كل مذهب في تصور أهميتها،

وعظمتها، وبُعدها عن متناول أيدي الطالبين.. بالإضافة إلى سموِّها لما لها من قداسة، وعلو شأن، وطهارة، وسداد في مضامينها..

3 ـ ثم وصفها بـ ﴿**الْقَيِّمَةُ**﴾. ليدل على أنها من موجبات قوام الأمر، وثباته، ولاسيما ما يرتبط بمعاش الناس ومعادهم..

فالكتب السماوية والعمل بما فيها من مناهج هو الذي يقيم حياة الأمم، ويضبط مسارها، ويضمن وصولها إلى غاياتها، ويحفظها من الأدواء والأسواء التي تعيقها عن بلوغ مقاصدها الشريفة.

ويحتمل أن تكون كلمة ﴿**الْقَيِّمَةُ**﴾ وصفاً للأمة. أي أن تلك الكتب هي كتب الأمة القيمة بالقسط والعدل، والملتزمة بالعمل بالهدى الإلهي الموجب لسعادة الإنسان في دنياه وآخرته..

والمعنى الأول هو الأقرب والأنسب في سياق الكلام، مع سلامته عن التكلف..

الفصل الثالث

تفرق أهل الكتاب..

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

التفرق وأسبابه:

1 ـ وأول ما يواجهنا في هذه الآية الشريفة: أنه تعالى تحدث فيها عن تفرق أهل الكتاب، وحصر ذلك بمجيئ البينة، بصيغة «ما» و «إلا».

ومن الواضح: أن التفرق ليس هو الإختلاف.. والحديث هنا عن الأول، لا عن الثاني.. فقد يختلف إنسان مع آخر على أمر، أو في شيء، ولكن الصلة بينهما لا تنقطع، لوجود جامع آخر، أو جوامع أخرى بينهما توجب بقاء حالة التلاقي، والإتصال بينهما.. ومثال ذلك: الإجتهاد الذي يتسع للإختلاف في الرأي الإجتهادي بين المجتهدين.

أما التفرق، فهو انفصال تام بين العناصر المجتمعة.. وذلك يعني بالدلالة الإلتزامية: عدم وجود ما يجمع، أو ما يوجب التلاقي.

2 ـ وقد ذكرت الآية المباركة: أن لحظة حصول هذا التفرق والإنفصال هي لحظة مجيئ البيِّنة.. وهي رسول الله «صلى الله عليه وآله»، كما صرحت به آية سابقة.. والرسول هو الذي تتأكد رسوليته ورسالته بالبراهين الظاهرة، والدلائل الباهرة، والمعجزات القاهرة للعقول، التي يعجز البشر عن مجاراتها.

3 ـ إن ربط التفرق بمجيئ البيِّنة، التي هي رسول الله يشعر بنوع من السببية بين الأمرين، فيرد هنا سؤال يقول: كيف يكون مجيئ الرسول سبباً

للإختلاف.. والحال: أن المطلوب هو أن يكون الرسول هو السبب في التوحّد، والإئتلاف؟!

ونجيب:

بأن التفرق تارة يكون مبغوضاً، ومرفوضاً، وهو تفرق أهل الحق عن الحق، الموجب لإضعاف الحق وأهله، وحماته.

وقد يكون التفرق محبوباً ومطلوباً، إذا كان تفرقاً لأهل الباطل، وكان موجباً لإضعافهم، وإضعاف باطلهم، وكسر شوكتهم وشوكته.. فكيف إذا كان يتميَّز به الخبيث عن الطيب، ويحصِّن الطيب من وطأة مكائد وتدخلات أهل الباطل، ويحقق الأمن من كيدهم، ومكرهم، وأذاهم وظلمهم للحق وأهله؟! بل إن هذا التفرق يكون أشد محبوبية، وأكثر مطلوبية أيضاً.

وهذا التفرق دليل عافية، ومبدأ سلامة، لأن به يمتاز السعداء عن الأشقياء، والأخيار عن الأشرار، فليس التفرق مداناً ومبغوضاً دائماً.. لأن ما يكون مبدأً لتبلور الأمور، وظهور الحق محبوب بلا ريب.

أما إذا كان التفرق لأهل الدنيا بسبب التنازع على الدنيا، فلا يعتدُّ به، ولا يؤسف له..

لماذا لم يقل: «أهل الكتاب»؟!:

وقد رأينا: أنه تعالى قال في أول السورة: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، لكنه قال هنا: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، ولم يقل: «أهل الكتاب» مثلاً..

فهنا سؤالان:

أحدهما: لماذا هذا العدول عن التعبير السابق؟! مع أنه أخصر وأقصر.

الثاني: وأيضاً لماذا قال: ﴿**أُوتُوا**﴾، ولم يقل: «أعطوا»، أو نحو ذلك؟!

وما هو الفرق بين الإيتاء، والإعطاء؟!

ونجيب:

أما بالنسة للسؤال الأول، فنقول:

قد يحاول من في قلبه مرض أن يدَّعي: أنه تعالى لو قال في هذه الآية: «وما تفرق أهل الكتاب» لما عُرِف المقصود بالكتاب، هل هو الكتاب الذي جاءهم به الأنبياء؟! أو كتابٌ هم صنعوه واخترعوه؟! أو هو كتاب اخترعه الأنبياء الذين جاؤوهم به ـ والعياذ بالله ـ؟! أم هي أساطير الأولين، اكتتبها مدَّعو النبوة، وجاؤوهم بها ـ حسب ما يشيعونه من أراجيف ـ؟! كل ذلك محتمل.

ولكنه حين قال: ﴿**أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾، فإن الآية تكون صريحة في أن الكتاب ليس منهم.. وإنما الأنبياء واسطة إيصاله إليهم..

وتشير الآية أيضاً: إلى أن الأنبياء ليس لهم أي دور في صنعه..

ونجيب على السؤال الثاني: بأن الإيتاء يختلف عن الإعطاء، فإن الإعطاء هو المناولة، مما يعني: وصول الشيء إلى الطرف الآخر بالمباشرة، وإذا كان الإعطاء من الله مباشرة، فإنه يدل على حفاوة واهتمام.. بل قد يفهم منه التشريف والتكريم أيضاً..

مع أن الله تعالى هنا لا يريد أن يحتفي بالكافر المعاند، ولا أن يستعمل أي تعبيرٍ يوهم بذلك، بل المطلوب هو بيان: أن الإيصال كان بواسطة الأنبياء، الذين تدل المعجزات الناس على نبوَّتهم..

فليس المطلوب هو الحديث عن الوصول بالإعطاء المباشر، بل المطلوب بيان وضع الهدايات الإلهية في سياق الوصول.

نقول هذا، لأن المقام في هذه الآية لا يناسب التكريم والحفاوة من الله بأهل الكتاب، لأنهم كفروا، ولم يكونوا أهلاً لشيء من ذلك، ولذلك تحاشى سبحانه كلمة «أعطى»، لأنها توهم أو هو يحتمل فيها..

هذه الآية لم تذكر المشركين:

ويبقى هنا سؤال.. عن أن السورة قد بدأت بالحديث عن أهل الكتاب والمشركين، ولكنها في هذه الآية قد سكتت عن المشركين، فما هو السبب في ذلك؟!

ونجيب:

أولاً: إن المشركين أضعف حجة من أهل الكتاب، فإن ما هم عليه يناقض الفطرة، وتأبى العقول السليمة أن يكون للعاجز والجاهل، والفاقد للعقل، ولسائر الكمالات، والقدرات، والميزات أي مقام أو امتياز في مقابل من يملك ميزات وقدرات، وكمالات تزيد على ما لدى ذلك الفاقد، فما بالك بإعطاء درجات فوق ذلك، فضلاً عن بلوغ الأمور إلى حد أن يعطى صفات من يقدس، أو يعبد.

ولأجل ذلك، ولغير ذلك من أسباب جاء قوله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ**

---

(1) الآية 13 من سورة لقمان.

ذَلِكَ﴾[1].

ثانياً: إن رعاة الشرك وحماته هم الأقوياء والأغنياء، والمتنفذون من الناس، وسائر الناس يخضعون لإرادة وهيمنة هؤلاء، وهم الذين يواجهون دعوات الأنبياء بالرفض والجحود، لأنهم لا يريدون الخضوع لإله قوي، قادر، عالم وحكيم، ويحاسب، ويطالب، ويثيب، ويعاقب، ويفرض أحكامه ونظامه عليهم.

إنهم يجحدون، ويعاندون، ويحاربون الأنبياء، والأصفياء، والأولياء، وأنصارهم.. ويكون أهم وسائلهم هم الجهلة والضعفاء، وهم يسخِّرون الجهلة والمستضعفين في خدمة أغراضهم الدنيئة، ومصالحهم الرديئة، ويزينون للناس الكفر والشرك، ويفرضونه عليهم بمختلف وسائل الفرض، مستغلين جهلهم، وسذاجة الكثيرين منهم.

أما الذين أوتوا الكتاب، فقد رأوا الأنبياء، وعاينوا معجزاتهم، وبعضاً من دلائلهم وآياتهم، ولم يعد لديهم خيار سوى الإيمان بهم، والتسليم والخضوع، أو الجحود عن علم.. وقد سمعوا وعرفوا الكثير من الحقائق والدقائق، وبلغتهم الهدايات، والدلالات من أنبيائهم، وهداتهم، ولكن علماءهم وأصحاب النفوذ والقرار فيهم غيَّروا، وبدَّلوا، وحرَّفوا على حين غفلة من أتباعهم، فضلُّوا وأضلُّوا، وناصرهم أتباعهم، وشدُّوا من أزرهم، ظناً منهم بأنهم صادقون، وأنهم على حق.

فلما جاءهم الهدى، وأتتهم البيِّنة، وبعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» نابذوه، وحاربوه، متابعة منهم، وانقياداً لأولئك الأفَّاكين، وتصديقاً منهم

---

(1) الآية 48 و 116 من سورة النساء.

لهم.. فكانوا أشد من المشركين تمسكاً بما هم عليه، لأنهم يرون أن دينهم منزل من عند الله.. بالرغم مما نال دينهم على يد أحبارهم، ورهبانهم من تزييف وتحريف.

فكان المطلوب: هو إنزال أهل الكتاب عن هذا العرش الموهوم الذي صنعوه لأنفسهم، من الدعاوى العريضة، والإنتفاخات الفارغة، والتهويلات الزائلة، والتأويلات الباطلة.

ثالثاً: وربما أمكن القول هنا: بأن الأنبياء السابقين إنما جاؤوا أقوامهم بالحق، وبالدين، والشريعة، والتعاليم الصحيحة في مختلف المجالات من عند الله تعالى، ويجب على كل من سمع الحق، وعرف بنبوة من جاء به من خلال المعجزة: أن يخضع للحق، ويأخذ به..

فمثلاً إذا بعث موسى أو عيسى «عليهما السلام» لقوم مشركين، فآمن به قسم منهم، وبقي الآخرون على شركهم.. فإن من بقي على الشرك قد أوتي الكتاب الذي جاء به موسى أو عيسى أيضاً.. فيكون قوله تعالى في هذه الآية: ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾ شاملاً لهذا القسم من الناس أيضاً.

إلا إذا فرض وجود فئة في فترة معيَّنة تعيش الغفلة عن الأنبياء السابقين، واتجهت نحو الشرك لقلة مبالاتها، أو متابعة للآباء والأجداد، أو لأجل حفظ مصالحها، أو نحو ذلك.. فإن هذه الأمة ليست من مصاديق من أوتي الكتاب لكي تشملها الآية المباركة، وهذا هو حال أهل الفترة.. وهم الذين عاشوا في الفترة المتصلة ببعثة رسول الله «صلى الله عليه وآله»..

غير أننا نقول:

إن وجود فترة من الزمن تتسم بالطول بين موت النبي السابق، وبين بعثة

النبي اللاحق، لا يعني أن هذه الفترة كانت فاقدة للحجة.. فأوصياء الأنبياء كانوا موجودين بين الناس بصورة متواصلة، والعلماء الحملة للحق والدين الحنيف، لم يغيبوا عن ذلك الإمتداد الزمني المسمى بالفترة.. مضافاً إلى أحكام العقل في الإعتقادات الأصلية، بل في كثير غيرها.

ولا يجب أن يكون الأنبياء بأشخاصهم، وأعيانهم، ووجوداتهم البشرية موجودين في كل الأزمنة والأمكنة.

والمراد بقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾[1].. ليس هو الوجود البشري المستمر للرسول في جميع لحظات حياة الأمة، بل يكفي أن يكون ذلك النبي حاضراً بينهم بدينه، وتعاليمه، وبما جاء به.. ويكون الناس قادرين على الوصول إلى تعاليمه، والإطِّلاع عليها، من أوصيائه، وحملة علمه، وحماة دينه، والحجج في البلاد على العباد..

الفرق بين جاءتهم، وبين تأتيهم:

ويلاحظ هنا: أنه تعالى قال في هذه الآية: ﴿**جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾.. وقال سبحانه في أول هذه السورة: ﴿**تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾..

فهنا سؤالان، هما :

1 ـ ما الفرق بين المجيء، وبين الإتيان؟!

2 ـ لماذا استفاد من صيغة الفعل المضارع في تأتيهم، ومن صيغة الفعل الماضي في «جاءتهم»؟!

---

(1) الآية 15 من سورة الإسراء.

ونجيب:

1 ـ بالنسبة للسؤال الثاني نقول:

إن أهل الكتاب كانوا يعرفون بأن النبي محمداً «صلى الله عليه وآله» قد أظل زمانه، وكانوا يخبرون المشركين بذلك، ويتوعدونهم، ويقولون لهم: إننا ننتظر نبياً يُبعث الآن، يقتلكم قتل عاد وثمود، فنتبعه، ونظهر عليكم معه(1)، فلما بعث النبي «صلى الله عليه وآله» جحدوا نبوَّته، ومالأوا المشركين عليه، وحاربوه معهم..

ولأجل ذلك أخبر تعالى في الآية الأولى: بأن المشركين وأهل الكتاب سيبقون مصرِّين على باطلهم إلى أن تأتيهم البيِّنة التي هي بعثة نبيّنا الأعظم «صلى الله عليه وآله» يتلو صحفاً مطهرة..

ولأن هذا الكلام من أهل الكتاب ومن المشركين، والإصرار منهم على الكفر والشرك قد كان قبل البعثة، وقبل مجيئ البيِّنة.. عبَّر سبحانه وتعالى بصيغة الفعل المضارع، فقال: ﴿**حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾ في الحال، أو في المستقبل، لأن الفعل المضارع ناظر إلى الحال والإستقبال..

وقد ساعدت كلمة «حتى» في الدلالة على الإستقبال أيضاً، وأنه «صلى الله عليه وآله» لم يأت بعد، وإنما يوشك أن يأتي، أو على شرف الإتيان..

وأما قوله تعالى: ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾، فهو ناظر إلى ما حدث بعد مجيئ البيِّنة، ببعثة الرسول «صلى الله

(1) الثقات، لابن حبان ج1 ص90.

عليه وآله».. فإن أهل الكتاب قد اختلفوا في القبول، وعدمه، فمنهم من آمن، ومنهم من جحد واستكبر..

وهو إنما يتحدث عن هذه الأمور لكي يدل على أن ما يفعله المشركون مع النبي «صلى الله عليه وآله».. وكذلك أهل الكتاب قد جرى نظيره للأمم السالفة.. فهو جار في هذه الأمة على قاعدة: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، ومطابق النعل بالنعل حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتم فيه»[1].

(1) راجع: مسند أحمد (ط دار صادر) ج2 ص325 و 511 وج3 ص84 و 89 وسنن ابن ماجة ج2 ص1322 وصحيح البخاري (ط دار الفكر) ج4 ص144 و (ط دار إحياء التراث العربي) ج7 ص170 وج15 ص235 وصحيح مسلم (ط دار الفكر) ج8 ص57 و (ط دار الكتب العلمية) ج16 ص189 وصحيح ابن حبان (ط دار الفكر) ج6 ص192 و (ط مؤسسة الرسالة) ج15 ص95 والمستدرك للحاكم ج4 ص455 ومجمع الزوائد ج7 ص261 والدرر لابن عبد البر ص225 والجامع الصغير ج2 ص401 وكنز العمال ج11 ص134 والدر المنثور (ط دار الفكر) ج7 ص466 وجامع البيان (ط المعرفة) ج10 ص121 والجامع لأحكام القرآن (ط دار الكتب العلمية) ج8 ص200 وتفسير القرآن العظيم ج4 ص152 وجامع المسانيد والمراسيل (ط دار الفكر) ج6 ص23 وج8 ص179 واللؤلؤ والمرجان (ط دار الفكر) ج1 ص827 والفتح الكبير (ط دار الفكر) ج3 ص8 و 334 والمصنف للصنعاني (ط دار الفكر) ج11 ص369. وراجع: دعائم الإسلام ج1 ص1 وبحار الأنوار ج5 ص22 وج13 ص180 وج22 ص390 وج24 ص350 وج28 ص7 و 30 و 282 و 2 وج29 ص450 وج36 ص284 وج51 ص253 وج52 ص110 وج53 ص72 و 141 ومستدرك سفينة البحار ج5 ص185 ونور الثقلين (تفسير) ج1 ص606.

وهذا يشير إلى أن الله تعالى قد بعث الأنبياء للأمم السالفة بالكتب والبيِّنات، وأيَّدهم بالمعجزات والدلالات، فآمن بعضهم، وجحد آخرون عن علم ومعرفة، فلا غرو أن يحصل نظيره في هذه الأمة.

وبذلك يتضح: أنه حين جاء بكلمة ﴿**جَاءَتْهُمُ**﴾، إنما كان يتحدث عن الأمم الكافرة بعد مجيئ الأنبياء، بما لديهم من هدايات ومعجزات إليها، فإنها تتفرق عن باطلها، وحين قال: ﴿**حَتَّى تَأْتِيَهُمُ**﴾ فإنما كان يتحدث عمن يصرّ على كفره وشركه قبل مجيئ الأنبياء، بالرغم من مخالفة ما هو عليه للفطرة وللعقل.. وهذا كان حال قوم رسول الله «صلى الله عليه وآله».. وإنما ذكر الله تعالى هذا الأمر ليعرِّفهم، ويعرِّف الناس كيف أنهم ركبوا سنن من كان قبلهم.

2 ـ وبالنسبة للسؤال الأول عن الفرق بين المجيئ والإتيان نقول:

إن الفرق بينهما هو نفس الفرق بين آتى وأعطى، الذي قدَّمنا الحديث عنه، فإن الإتيان ناظر إلى انطلاق الشيء من مصدره، ومكمنه، أو موضعه، من دون تصريح بوصوله إلى مقصده، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿**أَتَى أَمْرُ الله فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾[1].. يلاحظ: أن قوله ﴿**فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾ يدل على أنه لم يصل بعد، وإنما يتوقع وصوله..

أما كلمة جاء، فتشير إلى الوصول إلى المقصد بالفعل، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ**﴾[1]..

وقوله عز وجل: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله وَالله**

---

(1) الآية 1 من سورة النحل.

(1) الآية 83 من سورة النساء.

يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[1]..

فهذه الآيات إنما تتحدث عن المجيء، وتريد به الوصول إلى المقصد والغاية.

لا مبرر للضلال والشرك:

ثم إن هذه الآية تريد أن تقرر حقيقة: أن هذا التمسك الشديد بالكفر والشرك لا مبرر له، ولا منطق يساعده، ولا وجدان يرتضيه، وترفضه الفطرة السليمة، والسجية القويمة، والعقل الرشيد، والرأي السديد، لأنه لا يعدو كونه مجموعة ترهات وقبائح، وجهالات واضحة، وظلمات فاضحة، وجيفاً فكرية نتنة، ريحها فائح، يزكم أنف الغادي والرائح.

والذي يدعو إليه أنبياء الله، وأوصياؤهم، والعلماء العقلاء الحكماء، ما هو إلا رَوْحٌ وريحان، وجنة نعيم.. وطهر، ونقاء، وبهجة، وصفاء، وسبيل سعادة، ورشاد، وسمو وسداد، ونِعم باقية، ومقامات سامية، لا تحول ولا تزول، ومُلك يبهر العقول، وفيه كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذه الأعين، ومن وراء ذلك رضوان من الله ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية عناوين كبرى، هي التي توصل إلى هذه الغايات، وتحقق هذه الأمنيات، وهي نفحات رحمانية، تهفو إليها النفوس، وتحنو عليها، وتحن إليها، وتنسجم معها، وتتلذذ وتتغذى، وتتنامى بها الفطرة السليمة والمستقيمة.

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، بعض ما ألمحت إليه بعض كلمات هذه

---

(1) الآية 1 من سورة المنافقون.

(2) الآية 72 من سورة التوبة.

الآية المباركة فنقول:

هنا أمور ثلاثة ذكرها سبحانه وتعالى، وهي:

1 ـ إن الكافرين والمشركين، وجميع البشر إنما أمروا بعبادة الله، وأن لا يعبدوا أنفسهم الأمَّارة بالسوء، وشهواتهم، ولا يدعوا من دون الله عباداً أمثالهم، ولا يعبدوا الحيوانات والجن، والشمس والقمر، والجمادات.. من أشجار وأحجار، وسواها..

بل عليهم أن يعبدوا الله العلي العظيم، والخبير العليم، والقوي الحكيم، والغفور الرحيم، الذي بيده ملكوت كل شيء.. فإن ذلك هو اللائق بالإنسان السري والنبيل، والسوي، والكريم الفاضل، الأبي..

2 ـ وأمروا أن يجسدوا طاعتهم لله في أوامره ونواهيه، ونيل رضاه على أتم وجه، وأسماه، وأرضاه، كما ألمح إليه قوله تعالى: ﴿**وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾.

3 ـ وأمرهم أيضاً ببناء حياتهم، ومجتمعاتهم على أساس التكافل والتعاون، وأداء الحقوق، وإزالة العوائق من طريق التكامل والرقي في مختلف المجالات.. وأن يكون البذل والعطاء، وتلبية الحاجات همهم، وإصلاح ما فسد من دينهم، والعمل الصالح سيرتهم.

وأن لا تكون حياتهم قائمة على أساس الشح والبخل، واقتناص الفرص من أيدي الضعفاء، واستلاب حقوق الآخرين، وحرمانهم حتى من ثمرات جهودهم، بحيل شيطانية، ومكر إبليسي..

وسيأتي إن شاء الله في ثنايا البحث في آيات السورة بعض اللمحات التي قد تكون مفيدة وسديدة في هذا المجال.

الفصل الرابع

أمروا بما يجمعهم..

وما أمروا:

وقد تحدثت الآية هنا عن خصوص ما أمروا به، ولم تشر إلى موارد النهي والزجر، فقالت: إن الذي أمر الله عباده به منحصر في الأمور التالية، ثم ذكرت ثلاثة أمور، فلماذا انحصر الكلام في الأمر دون النهي والزجر؟!

ويجاب:

أولاً: إن النهي لا يبتعد كثيراً في حقيقته وماهيته عن الأمر.. فكلاهما طلب، والإختلاف إنما هو في متعلقه، هل هو وجود الشيء، أو عدم وجوده؟!

الإختلاف أيضاً في الصيغة الحاملة لذلك الطلب، إلى الطرف الآخر، ليتحقق مضمونه الذي عبَّرنا عنه بالمتعلق..

غير أن الآية الكريمة هنا إنما تتحدث عن مقومات، وعناصر بناء حياة البشر، وسعادتهم في الدنيا والآخرة.. فقد اقتضى ذلك أن تكون هذه العناصر مما يُطلب وجوده، لأن بها قوام، وبناء، وتشييد صرح الحياة السعيدة والمجيدة، بجميع مجالاتها، وامتداداتها إلى الحياة البرزخية، والأخروية أيضاً، لأن الإسلام يريد من الإنسان أن يقوم بإعمار الكون كله، وأن يستفيد من كل الطاقات الكامنة فيه، ويوصل المخلوقات فيه إلى كمالاتها، وأن ينتج الخير، والسعادة والبقاء لنفسه، وأن ينال درجة الزلفى والرضوان عند ربه.

وما أبعد ما بين الإنسان العامل والخامل.. فما بالك بالإنسان الهادم للخير،

والمهلك للحرث والنسل، والمفسد في الأرض، وفي البر والبحر، وفي الهواء والسماء، وغير ذلك.

وهذا يحتاج إلى عناصر ثلاثة، هي:

أولاً: إلى تحديد العلاقة مع الله في جميع الشؤون والأحوال.

ثانياً: إقامة العلاقة مع النفس بصورة صحيحة.

ثالثاً: تحديد طبيعة العلاقة مع كل المخلوقات التي يتعاطى معها، سواء أكانوا بشراً، أو أي شيء آخر..

وقد حددها الله تعالى في هذه الآية المباركة بالأمور الثلاثة التالية:

ـ إخلاص العبادة لله أولاً..

ـ ثم تربية النفس والهيمنة عليها، المتمثل بإقامة الصلاة على النحو الذي سيأتي بيانه ثانياً.

ـ ثم تحمل المسؤولية تجاه الآخرين، المشار إليه بقوله: ﴿**وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ**﴾ ثالثاً.

وسيأتي مزيد توضيح لهذه الأمور إن شاء الله تعالى.

أما الممنوعات والمحرمات، وسائر ما نهى الله ورسوله، وأوصياؤه عنه، فإنما هدف هذا المنع: هو الحفظ والصيانة، والتحصين للباني، وللبناء في عناصره، وحالاته، وامتداداته، من التعرض لأي خلل، أو وهن، أو ضعف، أو أي سوء من أي نوع، مهما كان حجمه، وأيّاً كان اسمه ورسمه..

فإذا قال الشارع الحكيم للإنسان: لا تكذب، لا تفتن، لا تشكك، لا تضلل، لا تخن، لا تسرق، لا تزن، لا تعتد، لا تظلم، لا تغتب، لا.. لا.. إن ذلك كله لحفظ السلامة للناس، في أنفسهم، وأموالهم، وكراماتهم، وفكرهم،

واعتقاداتهم، وأخلاقهم، وعلاقاتهم، وسائر أحوالهم.

إلا ليعبدوا الله:

ولأجل ذلك تحدث بطريقة الحصر عن أمور ثلاثة، وهي كما يلي:

يلاحظ: أن الله تعالى لم يحصر الأوامر بالأمر بعبادة الله، والأمر بالصلاة، ثم الأمر بالزكاة..

بل الآية تقول: إن جميع أوامر الله تعالى لعباده بما ينتج ويحقق هذه الأمور الثلاثة، وهي: أن يعبدوا الله، وأن يقيموا الصلاة، وأن يؤتوا الزكاة.

فلو أمره مثلاً بالتطهر، أو بقراءة القرآن، أو بقراءة الدعاء، أو بصلة الرحم.. أو أي شيء آخر، فإنه يريد أن يكون فعله لما أمر به من موجبات وصوله إلى تحقيق هذه الأمور الثلاثة..

فهذه الآية من قبيل قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾(1). أي أن الله تعالى أمر نساء النبي «صلى الله عليه وآله» بالقرار في بيوتهن، وبالتقوى، وأن لا يخضعن بالقول، وأن يقلن قولاً معروفاً، وأن لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأن يقمن الصلاة، ويؤتين الزكاة، وأن يطعن الله ورسوله..

نعم، إن هذه الأوامر والنواهي كلها، إنما صدرت للنساء، لأنه يريد حفظ أهل البيت «عليهم السلام». أي بيت النبوة (لا بيت السكن، ولا بيت القبيلة).

وأهل بيت النبوة هم خمسة أشخاص فقط، وهم: علي، وفاطمة، والحسنان

---

(1) الآية 33 من سورة الأحزاب.

«عليهم أفضل الصلاة السلام»، ومعهم النبي «صلى الله عليه وآله». كما دل عليه حديث الكساء المتواتر، ولأجل ذلك قال: ﴿**لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ**﴾، ولم يقل: «يريد أن يذهب».

قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾(1).

وقوله في آية أخرى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾(2).

فالآية الأولى تدل على أن مطلوبهم ومتعلق إرادتهم أولاً وبالذات هو افتراء الكذب على الله، لكي يتوصلوا به إلى شيء آخر، وهو إطفاء نور الله.

والآية الثانية تدل على أن مطلوبهم، ومتعلق إرادتهم هو نفس إطفاء نور الله مباشرة، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، والمسيح عيسى بن مريم قاصدين إزالة معنى التوحيد، وإبطال دين الحق مباشرة، باعتمادهم غيره، وإزالتهم حقائقه بهذه الطريقة.

وقد ذكرنا هذا الأمر في كتابنا: «أهل البيت في آية التطهير» أيضاً، فراجع.

لتحقيق العبودية:

تقدم أن الآية تقول: إن جميع ما أمر الله به عباده: هدفه سوقهم والإنتهاء بهم إلى هذه الأمور الثلاثة، ويمكن بيان هذا الأمر باختصار شديد على النحو التالي:

---

(1) الآية 8 من سورة الصف.

(2) الآية 32 من سورة التوبة.

ليعبدوا الله:

قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ﴾.

وقال في سورة أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(1).

ولا يريد الله تعالى بالعبادة مجرد قيام عبده بحركات جوارحية معيَّنة هي بنظر الناس عبادة.. ثم تذهب القوى الذهنية لذلك العبد المصلي، وفكره، ومشاعره لتدير تجاراته، وتتفحص علاقاته، وتنظر في مصالحه، وترسم حركته، وسياساته.. وتتحقق من الصفقات التي عقدها، والتوقعات التي وضعها، والمكائد التي دبَّرها، وغير ذلك من شؤونه الدنيوية.. وإذ به يفاجأ: بأن صلاته قد انتهت، فيسلِّم وينصرف لمتابعة نفس ما كان قد بدأه في حال الصلاة، فكأنه يعيش دائماً في سوق البيع والشراء، والمعاملات، والأخذ والرد.. فهل يمكن أن يقال عن هذا المصلي: إنه قد عبد الله، أو أنه قد اختلى بنفسه في الصلاة ليجد فرصة لإعادة النظر في حساباته وعلاقاته، وشؤونه الدنيوية؟!

ولأجل ذلك نجد بعض الروايات عن المعصومين تذكر: أن هناك من إذا صلى أخذت صلاته، ولفت في خرقة، وضرب بها وجهه.. وذلك لخلو صلاته تلك من أي مضمون عبادي.

ولكن، حتى لو كانت صلاته على هذه الحالة من الخواء، فإنها تمنع عنه العقوبة على ترك هذه الفريضة بعد حضور وقتها.. ولكنها لم تفعل فعلها الذي توخاه الله منها، من منعها ذلك المصلي من الفحشاء والمنكر، ومن كونها معراجاً له، أو قرباناً، يشير إلى أنه في زمرة الأتقياء، أو غير ذلك..

---

(1) الآية 56 من سورة الذاريات.

بل لو أمعنا النظر في هذه الصلاة، فسنجد أن مصليها قد جعل منها باباً إلى الدنيا للحصول على رغائبه، وأهوائه، ومصالحه، وإلى ما تدعوه إليه غرائزه، وشهواته..

ولم يجعل منها باباً للوصول إلى الله، لينال منه التوفيقات، والبركات، ولتكون سبيل هداية له، وتزكية لنفسه، وتقوية لروحه، وتحصنه من أي ضرر أو خطر..

فالعبادة التي يريدها الله سبحانه هي إظهار الخضوع على نحو مخصوص، وهي التي تثمر طاعته لله، وتسليمه، وانصياعه لما يختاره له.. وتجعله قادراً على استحضار عظمة الله، وتؤهله لتقديسه، وتنزيهه عن كل ما ينافي ألوهيته، كالعجز، والجهل، والحاجة، والنقص، والظلم، والعيب، وكل ما ينافي صفات الجلال والكمال له تعالى..

يضاف إلى ذلك: التسليم له، والتزام مناهجه، والإهتداء بهديه، والأخذ بدلالاته، وطاعة رسله، والأمناء على وحيه..

فإذا لم تثمر العبادة كل هذا وسواه من معاني الفضيلة والخير، حتى تصبح معراجاً للعابد، وقرباناً كاشفاً عن تقواه، وتكون هي التي تأمره بالخيرات، وتنهاه عن كل فحشاء ومنكر، فهي ليست العبادة التي يريدها الله منه..

الحصر بـ «ما»، و «إلا»:

تقدم: أنه تعالى يريد من العبد: أن يحصر عبادته به تعالى، لأن العبادة إذا شِيبت بالهوى، وبحب الذات، وحب الشهوات، والرياء، والإنقياد للنفس الأمَّارة، والإتباع لشياطين الجن والإنس، لم تكن هي المطلوبة لله تعالى، بل

تكون مبغوضة له سبحانه.. والآيات والروايات الدالة على هذه المعاني كثيرة.

والمطلوب.. العبادة الخالصة له تعالى.. ولذلك حصر الله تعالى علاقته بعباده بعبادتهم إياه، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

وقال في هذه الآية: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ﴾.. فاستفاد من طريقة الحصر بـ «ما» و «إلا»، ليفيد أنه لا يرضى منهم أن يشركوا معه أحداً، أو شيئاً في الطاعة والعبادة.

مخلصين له الدين حنفاء:

وقد وصف الله تعالى من يعبده من عباده بوصفين هما غاية في الأهمية:

الأول: قوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

الثاني: قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ﴾.

بالنسبة لإخلاص الدين لله نقول:

1 ـ إن الإنسان قد يعبد ويقدِّس ما يشاء، ولكن ليس بالضرورة أن تكون عبادته خالصة لذلك المعبود، فقد يعبد الله، ولكنه يشرك معه مخلوقاته، ويطلب حاجاته منهم، ويعتمد عليهم في رزقه، وفي حل مشكلاته، أو يعتمد على الطبيب في شفاء مرضه، أو على القريب في معونته، أو على العشيرة في أمنه، وقد يحب إنساناً آخر، ويطيعه ويعصي الله، وقد يطيع هوى نفسه، وينسى ربه، أو لا يهتم بأوامره ونواهيه، أو يخضع لسلطانه، ويرتكب العظائم والجرائم في طاعته.

وقد ورد في الرواية عن الإمام الصادق «عليه السلام» قوله: «إن الشرك

---

(1) الآية 56 من سورة الذاريات.

أخفى من دبيب النمل»..

ولذا قال تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(1).

وقد يعبد الله ليسهل له الحصول على ما تشتهيه نفسه، كما قال الشاعر:

صلى وصام لأمر كان يطلبه لما قضى الأمر لا صلى، ولا صاما

وقد قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(2).

2 ـ إن الله تعالى قد بيّن في هذه الآية المباركة: أن الإخلاص بحد ذاته، وبما هو حالة نفسية ليس مفيداً، ولا مطلوباً في نفسه، فلا يقبل قول بعض الناس بكفاية طهارة القلب وصفائه، بل لا بد من إضافة التدين، والجري العملي إلى هذا الإخلاص والصفاء القلبي، وأن يكون هذا الجري العملي له غاية لا بد أن ينتهي إليها، لكي لا يبقى حائراً أو طائراً في الهواء، ولا قيمة للعمل بلا هدف، لأنه يكون بحكم الهباء..

فكيف إذا شارك في هذا العمل العبادي نفس العابد، واقتطع سهماً منه لنفسه، أو أفرد منه حصة لحبيبه، أو قريبه، أو صديقه، أو رئيسه وزعيمه، وما إلى ذلك؟!

---

(1) الآية 110 من سورة الكهف.

(2) الآية 24 من سورة التوبة.

أما بالنسبة لقوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ﴾، فنقول:

1 ـ الحنيف هو الإنسان الذي لا يميل إلى الباطل، ولا يحيف على الحق، وهذا يدلنا على أن لديه قوة وثباتاً، وإنصافاً، وأنه إنسان متوازن، بعيد عن الإفراط والتفريط، والعشوائية..

ويدل أيضاً: على أن لديه موازين وضوابط، ولديه عقل، وتدبير، ونظر في الأمور.

2 ـ هذا كله يؤكد عبوديَّته لله، ويقوِّيها، ويرسِّخها، ويضمن بقاءها سليمة عن أي تبدل، أو انتهاك.. فهو خاضع لله، ثابت على عبادته، وعبوديته، لا يحرفه عن ذلك مال، أو جاه، أو شهوة، أو عصبية لشيء، ولا يخضع لإرادة الأغيار، ولا يستجيب لرغباتهم.. بل إن هذه الحنيفية توصل إلى العبودية الخالصة لله، وإخلاص الدين له تعالى.

ويقيموا الصلاة:

1 ـ وبديهي: أن عبادة الله تعالى التي تعني: الطاعة والخضوع، والتقديس له، هي التي تسوق العابد إلى الصلاة، وإلى الحرص المتنامي على إقامتها، وتجسيد معانيها في حياته، ويمكِّنها من العروج بروحه، ويعمق آثارها في نفسه، ويسعى للتفاعل مع كل كلمة، وحرف، وحركة، وفعل فيها، وإلى ترشيد معارفه بمعانيها وأهدافها، والإلتزام بكل ما شرَّعه الله تعالى فيها.

ونحن نعلم: أن الله يريد أن يُعبد كما رسم، ولا يرضى باختراعات الناس طرائق للعبادة، كما لا يريد أن يتدخل أحد فيما قرره تعالى في هذا المجال، بأن يمارس أي نوع من أنواع التقليم والتطعيم.. والله تعالى هو الذي يقول:

﴿قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾[1].

2 ـ وقد يسأل سائل، فيقول: أليست الصلاة أيضاً من مفردات عبادة الله، فلماذا ذكر أن الله أمرهم بعبادة الله، ثم أمرهم بإقامة الصلاة، فهل هذا من باب ذكر الخاص بعد العام، لأهمية هذا الفرد الخاص من بين أفراد ذلك العام؟!

ونجيب:

إن الأمر ليس كذلك، لأن الأمر بعبادة الله، إنما هو في مقابل الكفر والشرك. أي أن هذا التعبير ناظر للجانب الإعتقادي، لا العملي في ممارسة العابد للعبادات.

3 ـ والتنصيص على خصوص الصلاة، وإقامتها له أسباب كثيرة، فإن الصلاة هي: الحافظ، والضامن، والحارس الدائم للإيمان، والكافل لتناميه، وتجذره في حياة الإنسان..

وهي التي تصون المصلي من الضعف والخور..

وهي التي تحفظ له سلامة المحيط النفسي، والفكري، والأخلاقي من الملوِّثات، وتمنحه المزيد من الصفاء والنقاء، والقدرة على البقاء..

وهي التي تعالج الكثير من العاهات النفسية، والأخلاقية..

وهي تنهاه عن الفحشاء والمنكر..

وهي معراج المؤمن..

وهي أيضاً قربان كل تقي.

---

(1) الآية 59 من سورة يونس.

وكما أن مظاهر الصلاة في حركاتها، وأحوالها داخلة في معنى الخضوع والتسليم، والشعور بعظمة الخالق، وبالضعف أمامه، وبالحاجة إليه، فإن مضامينها بمثابة تلقين متواصل، وتذكير مستمر بالأسس والمنطلقات التي يقوم عليها الإسلام والإيمان، والتربية، والربط العقلي والقلبي، والوجداني، والعاطفي، والعلمي بتلك الحقائق والأسس.

فتجد فيها: التنزيه للذات الإلهية، ولمقام الربوبية عن كل ضعف، أو نقص، أو جهل، أو عجز، أو بخل، وغير ذلك..

وهذا ترسيخ لأساس عقائدي بالغ الأهمية في حياة الإنسان، وفي إيمانه، وفي فكره، وفي حركته، وفي كل وجوده..

وفيها تذكير بصفات الربوبية التي يحتاجها الإنسان في جميع حالاته، وسائر مفاصل حياته، مثل: الرحمن، والرحيم..

وفيها تأكيد على الإرتباط بالنبي «صلى الله عليه وآله»، وأوصيائه «عليهم السلام».

وفيها حديث عن الآخرة.

وحديث عن الهدايات والدلالات الإلهية، وعن كثير من الشؤون التي يحتاج بيانها إلى تفرغ تام، وتأليف مستقل..

وإقامة الصلاة، ببيان آخر:

وإذا أردنا أن نزيد في توضيح بعض ما نستشعره من التعبير بـ «يقيموا»، فإننا نقول:

1 ـ إن أي شيء إذا كان ملقى على الأرض.. فإن بعض جهاته، وهي

الملامسة للأرض تبقى غير واضحة في شكلها، وتكويناتها، وسائر الجهات والخصوصيات المرتبطة بذلك الجانب.

2 ـ إن هذا الملقى إذا كان من شأنه الموت والحياة، فإن هذين الأمرين يبقيان مبهمين أيضاً، ما دام بهذه الحالة.

كما أنك لا تستطيع أن تعرف الكثير أو القليل عن أعضائه الداخلية، ولا عن طبيعة عملها.

3 ـ يضاف إلى ذلك: أن هذا الملقى، إذا أمكن التعرف على حالاته وخصوصياته، فإن هذه المعرفة تبقى منقوصة، ولا تفي بالغرض، فإنك حتى لو رأيت أن لديه يداً، أو عيناً، أو أذناً، أو رِجْلاً مثلاً، فإنك لا تعرف إن كانت عينه ترى، وأذنه تسمع، ويده أو رجله تقوم بوظائفها..

4 ـ فإذا قام وتماسك واستقام، فإنه يعلم أنه حي، وأصبح بالإمكان التعرف على سائر جهاته، والإطِّلاع على أكثر حالاته وخصوصياته، ويعلم أن له قلباً، وأنه يقوم بوظائفه، وأن له سائر الأعضاء التي يحتاجها في قيامه هذا.

5 ـ وبعدما تقدم نقول:

المطلوب من الصلاة: أن تتحول من فعل ميت، كالميت الملقى على الأرض لا حراك فيه، ولا نشاط له ـ أن تتحول ـ إلى فعل حي ومؤثر، ويؤدي كل جزء منه وظائفه في حفظ المصلي، وصيانته من الفحشاء، والمنكر، وفي إبلاغه أهدافه في الوصول إلى الله تعالى..

بل يراد لها: أن تتجسد وتظهر آثارها ومعالمها في المصلي نفسه، حتى إن الناس إذا رأوه، أو تعاملوا معه، أو احتكوا به، عرفوا أنه من المصلين، من

خلال رؤيتهم آثار الصلاة فيه، حيث تظهر ثمراتها صدقاً في القول، وصواباً في الفعل، وتقوى في المعاملة، وأمانة في الأموال، ووفاء في الوعد، وطهراً في النوايا، وصحة في التفكير، واستقامة في السلوك، وصحة في الغايات والأهداف، إلى آخر ما هنالك..

وبذلك تقوم الصلاة وتتجسد بآثارها في المصلي، ويكون لها أثرها العظيم في حياته، وسعادته في الدنيا والآخرة..

وقد رأينا ثمرات الصلاة وهي تتجلى كلها في أئمة الهدى على أتم وجه، وبنسبة أقل في ثلة من الذين تربوا على أيديهم، واتَّبعوا نهجهم.

وقد علم من كل ما تقدم سبب التأكيد على إقامة الصلاة في مختلف الآيات القرآنية، ومنها هذا المورد..

وعلم أيضاً: السبب في أنه تعالى لم يقل: يصلون مثلاً..

ويؤتوا الزكاة:

ثم قال تعالى: ﴿**وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ**﴾، ولم يقل: «يزكُّون»، ولم يقل أيضاً: «يعطون الزكاة»..

كما أنه قد ذكر الزكاة، ولم يذكر غيرها من وجوه الإنفاق..

وهذه أسئلة تحتاج إلى جواب.

ويمكن معالجة السؤال الأول بالقول: بأن إعطاء الزكاة قد يكون تحت وطأة القهر والجبر، وقد يكون الدافع إلى إعطائها الخجل، أو حساب المصالح التي تفرض هذا الإعطاء، ليتمكن من تسويق تجاراته مثلاً، أو لكي لا يتعرض لضغوط لا يريد التعرض لها، بأن ينصرف الناس عن التعامل معه، ويفضلوا

التعامل مع غيره.

أو الرغبة في أن تسير أموره بانتظام، لكي يستفيد من التسهيلات والإرفاقات، أو لغير ذلك من أسباب..

ولو استطاع أن يحصل على ما يريد بدون إعطاء الزكاة، لكان ذلك أحب إلى قلبه، وأقرّ لعينه..

وقد يكون إعطاء الزكاة عن رضى، وقبول، ومن دون أي حرج.. بل قد يكون عن رغبة واندفاع، مع تلذذ، وشعور بالسعادة.

وهذا القسم الأخير هو الذي يريده الله من عباده، لأنه هو الذي يحقق لهم أقصى درجات القرب من الله، ويحمل لهم الكثير من البركات، ويوجب حلَّ الكثير من المشكلات الحياتية، والروحية، وهو الذي يستدرج المزيد من نعم الله، وألطافه..

وهو يستوجب المزيد من العناية الإلهية، والرعاية الربانية للمزكي، لأن من الواضح: أن الإنسان يحب المال حباً جماً، ويحب جمعه، والإستيلاء عليه من أي مصدر، وبأي نحو كان..

ويزيد تعلقه بما لديه منه، إذا كان قد حصل عليه بكد يمينه، وبعرق جبينه، فيصبح بالنسبة إليه جزءاً من كيانه، وشخصيته، ويقاتل كل أحد، حتى ولده من أجله..

فإذا تمكن من أن ينسلخ عنه، أو عن قسم منه، ليؤثر به من هو غريب عنه، وبعيد منه، طلباً لرضى الله، وبتأثير من مشاعر إنسانية نبيلة، فإنه يستحق التقدير الكبير على هذه الروحية، والنفس الزكية، والطاهرة النقية.

وفوق هذا وذاك في القيمة والكرامة: أن يكون هو المبادر والساعي، والباذل للوقت والجهد، والمتلهف لإيصال الزكاة إلى مستحقيها..

وهذا هو ما أشارت إليه كلمة «يؤتون»، لأن الإيتاء هو التحرك لإيصال الشيء إلى الطرف الآخر، على أن يكون هذا الإيتاء مشوباً بالسهولة، واليسر على الآخذ، وربما تمثلت السهولة واليسر، بلطف الخطاب، وبالبسمات العِذاب، وعدم المِّنة، ومن دون أن يكلف الآخذ بذل أي جهد، مهما كان صغيراً، فما بالك بالكبير منه.

وذلك دين القيِّمة:

ثم قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾..

وفي هذه الآية المباركة أمور كثيرة تحتاج إلى بيان، نذكر منها ما يلي:

أولاً: قوله: ﴿وَذَلِكَ﴾ اسم إشارة يشار به إلى البعيد، حقيقة أو تنزيلاً، فكأنه قال هنا: إن هذه الأمور التي ذكرت في هذه الآية لها شأن عظيم، ومقام كريم، وأهمية بالغة، لا تناله الأفهام، ولا ترقى إليه الأوهام، فلا ينبغي أن ينظر إليها كما ينظر لسائر الأمور العادية، والعابرة.. بل يحتاج فهم دقائقها، ونيل حقائقها إلى تعب وجهد في التعلم، وفي العبادة، وفي التربية، وفي التزكية، وبذل جهود متواصلة لإعمار الكون، وبناء المجتمع المؤمن والصادق، واللائق بمقامات القرب منه تعالى.

وهذا المعنى هو الذي اقتضى أن يقول الله تبارك وتعالى في أول سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ليدل على عظمة هذا الكتاب، وسمو مقامه، وأن معانيه لا تنال إلا بمزيد من الجهد والتعب، وبالرجوع إلى أهله،

وهم الأئمة الطاهرون «عليهم السلام».

ولو أنه تعالى قال: «هذا»، بدل «ذلك»، لفهم القارئ أو السامع أنك تريد تحديد مقصودك، وأن تميزه عن غيره، حتى لا يشتبه به.. ولا يفيد شيئاً من تلك المعاني التي أشرنا إليها..

ثانياً: إن اعتبار هذه الأمور التي ذكرت في الآية هي الدين الذي هو من عند الله، في قوله تعالى: ﴿**وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ يدل على أن ما يتوخّى منها ليس هو تأمين مصالح شخص أو فئة من الناس.. ولم يتأثر اعتبارها ديناً بدواعي الأهواء، والشهوات، والأنانيات، والعصبيات القبلية، أو الحزبية، ولا كان ذلك انبهاراً، أو تقديساً موروثاً، أو ما إلى ذلك..

والدين الذي يأتي من عند الله ليس له صلة بالدنيا، وحطامها، وغير ذلك من شؤونها، وحتى إيتاء الزكاة، إنما هو لإصلاح الحياة التي يعيش فيها الآخذ والمعطي.. وفي هذا الإعطاء فوز وسعادة لهما معاً، بل إن فوائده، وعوائده لا تنحصر بهما، بل تتعدَّاهما إلى سائر الشرائح الإجتماعية.

لأن الآخذ ليس أعز عند الله من المعطي، وليس لدى الآخذ فضيلة، وميزة اقتضت جعله آخذاً، بل هذا الإعطاء والأخذ استدراج للنِّعم، وخير وسعادة في الدنيا والآخرة.

كما أن العابد لا يمنح معبوده امتيازاً، بل هو بعبوديته لله تعالى يستنزل رحماته، ويتعرض لفواضله، وألطافه، ويفوز بمغفرته، وينعم برضاه، ويأنس ويسعد بقربه تعالى.. وهذا ما ينبغي له، وهذا هو حقه.

ثالثاً: إن هذا الدين الذي يريده الله هو الذي يبقي الحياة، ويقيم صرحها،

وينمِّيها، ويوصلها إلى كمالاتها، وأفضل حالاتها.

ويجعل كل ما فيها يثمر خيراً وصلاحاً، وسعادة وفلاحاً..

وقد تقدم: أن ثمة احتمالاً آخر هنا، وهو: أن يكون المراد: أن ذلك هو دين الأمة القيِّمة بالقسط، القادرة على إعمار الكون، وإقامة صرح الحياة السعيدة والفريدة والمجيدة.

الفصل الخامس

شرُّ البرية.. وخير البرية..

ثم قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**﴾..

تضمنت الآية المباركة أموراً كثيرة نحتاج إلى التوقف عندها.. ونذكر من ذلك ما يلي:

1 ـ تكلمنا في الآية الأولى من هذه السورة عن ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ**﴾، فلا داعي للإعادة، ولكننا نشير إلى شيء من ذلك باختصار شديد، ومن دون استيعاب، أو إطناب، فنقول:

ألف: قد يكفر الإنسان انسياقاً مع محيطه، أو اتّباعاً لأهله وعشيرته، مع غفلته، أو لامبالاته بالتحقق من صحة ما أخذه، وما اعتقده لعدم الشعور بأهمية الأمر في حياته العملية مثلاً.

وقد يكفر عن سابق تصور وتصميم، وبملء إرادته واختياره، وبقرار منه ومع التفاته إلى أهميته وحساسيته..

وهذا القسم هو المعني بهذه الآية، والآية الأولى في هذه السورة.. ولذلك قال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾..

إذ لو كان المراد الكفر المجرد عن الشعور بالأهمية، أو مع غفلة، أو عدم مبالاة، لكان يكفي أن يقول: إن الكافرين من أهل الكتاب..

ومعلوم: أن الكفر مع الإلتفات، والإختيار، والقرار، هو الأقبح والأشنع.

ب: أما قوله تعالى في الآية الرابعة: ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾، فعبَّر بـ «إيتاء الكتاب»، ولم يقل: «أهل الكتاب»، ليدل على أن الحديث إنما هو عن إيصال الكتاب إليهم بواسطة الأنبياء، أي من دون سعي، أو ظهور رغبة من أولئك الناس أنفسهم بالبحث عن الحق، وطلب الهداية.. بل جاءتهم الهداية الإلهية بيسر وسهولة..

وفائدة هذا التعبير: هو الإعلان عن أن الحجة عليهم من قبل الله قد تمت، ولم يكلفهم سوى أن يتبصَّروا ويفكروا بالأمر، وأن يؤمنوا بالحق.. إذ لم يعد لهم أي عذر، ولم تعد التعللات تجدي، ولا المماطلة تفيد.

والذي يزيد في وضوح الأمر: أن الله تعالى قد زوَّد الأنبياء بمعجزات قاهرة، وآيات ظاهرة وباهرة، لا تبقي عذراً لمعتذر، ولا حيلة لمتطلب حيلة.

فصدودهم عن الحق ـ والحالة هذه ـ وجحودهم سيكون جريمة عظيمة، واستكباراً قبيحاً، لأنه جحود أملاه عليهم حب الدنيا، ودعتهم إليه أهواؤهم، وعصبياتهم الجاهلية..

في نار جهنم:

ويلاحظ هنا: أنه تعالى قال: ﴿**فِي نَارِ جَهَنَّمَ**﴾، ولم يقل: في جهنم، أو في النار، وذلك لمزيد من الزجر، والتخويف، والدفع للتأمل بالمصير، حيث إن الإنسان يحب أن يكون مصيره حميداً وسعيداً.. فالتصريح بكون النار هي التي سوف تستحوذ على هؤلاء، إنما هو ليجعل هؤلاء الناس يتمثلون مصيرهم، ويتحسسون ما سوف ينالهم من آلام بسبب كفرهم.

ثم زاد الصورة الحسية قرباً وتبلوراً ووضوحاً بإضافة النار إلى جهنم، ليكون تمثُّل الصورة الحسية لهذا الأمر المبغوض لهم أبلغ وأشد، وأوقع في زجرهم ومنعهم.

ويتأكد هذا المعنى حين صرَّح بلفظ «النار»، وبلفظ «جهنم».. فإن الناس يعرفون النار عن قرب، ويتحسسون لذعاتها، وما ينشأ عنها من آلام مبرحة، وأخطار لا تطاق.. فهي تأكل كل ما يلقى إليها، فكيف إذا كانت نار جهنم؟!

ولو أنه تعالى قال: «في جهنم»، ولم يذكر النار، فربما توهِّم: أن هذا المكان قد أُعِدَّ لتعذيب العصاة، وقد يكون فيه فنون من العذاب غير النار، مثل: عذاب الزمهرير، أو العذاب بالأطعمة الكريهة والمنتنة، والخبيثة، التي لا تقربها دابة كالضريع، أو العذاب بالزقوم، الذي هو من أخبث الأشجار المرة الذي يُقدَّم للجهنميين كطعام لهم، وهناك العذاب بالسموم والحميم، والظل من اليحموم المشار إليه في قوله تعالى: ﴿**وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ**﴾[1].. وغير ذلك كثير يجده المتتبع للآيات والروايات..

خَالِدِينَ فِيهَا:

ثم ذكر تعالى زاجراً ثالثاً، فقال: ﴿**خَالِدِينَ**﴾.. حين بيَّن تعالى: أن الأمر لا يقتصر على مرور الكافرين في النار لمرحلة معينة، وينتهي الأمر، ليكون لهم أمل بالخلاص، وباستعادة العافية، وزوال المكروه، بل سيكون عذابهم في نار

(1) الآيات 41 ـ 44 من سورة الواقعة.

جهنم، خالداً ودائماً، فإنه يزيد في غمهم، ويكون أدعى للخوف والرعب، وأعظم أثراً في الزجر..

وثمة زجر رابع تضمنته كلمة ﴿فِيهَا﴾، بضميرها الذي يحتاج إلى عائد، وهو هنا يعود إلى نار جهنم، ويعيد التذكير بها، ويحضرها من جديد في أذهان هؤلاء الأشرار..

وهذا يدلنا على السبب في أنه تعالى لم يقل: «خالدين في نار جهنم»، لأن المحل محل إضمار، ولأن ذلك يفوِّت هذا الزجر الرابع، الذي تضمنته كلمة ﴿فِيهَا﴾..

شر البرية:

وعن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ نقول:

إن الشرك لا مبرر له، للأمور التالية:

أولاً: لمنافاته للفطرة.

ثانياً: إنه يصادم حكم العقل السليم والقويم.

ثالثاً: إن الشرك لا يستقيم إلا بتمحلات وادِّعاءات لا واقع لها، وراء خيالات وافتراضات مدَّعيها، مما يعني: أن ثمة شعوراً لدى المشرك نفسه بالزيف والتزوير، والإختراع والإبتداع..

أما أهل الكتاب، فيشاركون المشركين بمنافاة ما هم عليه للفطرة، ومخالفته لما تحكم به العقول السليمة.

والأمر الثالث والأهم: أنهم زادوا عليهم: أنهم رفضوا الهدايات الربَّانية، والدلالات، والآيات الظاهرة والباهرة، ولم يستجيبوا للمعجزات القاهرة،

من دون أن يكون لرفضهم هذا أي مبرر أو موجب.

وهذا يعني: أن هذين الصنفين من الكافرين، وهم: أهل الكتاب والمشركون، هم الأسوأ والأشر، والأشد بعداً عن الله تعالى .. لأن الكلام ليس عن أهل الكتاب، الذين آمنوا والتزموا بالحق، بل عن الذين جحدوا الحق منهم، وادَّعو الألوهية لعيسى «عليه السلام»، وابتدعوا، وأضافوا إلى ذلك ترهات وأباطيل كثيرة أخرى.. مع أن المعجزات ظاهرة، والحقائق ماثلة، والبراهين جلية، والعلماء والهداة بينهم، وكتاب الله في متناول أيديهم، وإن كانوا بعد ذلك قد حرَّفوه وزيَّفوه..

فجريمة هؤلاء عظيمة، وعقابهم أليم، لاسيما مع محاربتهم للحق، وأهله، وسعيهم لطمس دين الله..

فكلمة «من» في قوله تعالى: ﴿**مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾ تفيد التبعيض.

أما المشركون، فقد خالفوا فطرتهم، بعبادتهم الحجر والشجر، والشمس والقمر، والأبالسة والطغاة، والجبارين من الجن والبشر، وسوى ذلك مما هو جاهل وعاجز، ومحتاج، ولا إرادة له ولا اختيار، ولا بصيرة ولا فكر، وهو إلى زوال وفناء، ولا يمكن إلا أن يكون مخلوقاً ومربوباً، وله من يدبِّره ويرزقه، ويمرضه ويشفيه، ويميته ويحييه.

وما أقبح بالإنسان: أن ينسب لنفسه العقل والوعي، ثم يعبد الخشب والحديد، والحجر، والحيوان، والإنسان، وكل هذه المخلوقات التي يراها، ويصنع منها بيده أصناماً، أو يلمس حاجتها إليه ليرعاها ويحفظها، ويدافع عنها، أو ليطعمها ويسقيها، ثم هو يقدسها، ويطلب منها حاجاته، وحل

مشكلاته، أو يطلب رزقه، وشفاءه، وتوفيقه منها..

ولهذا قالت الآية المباركة: ﴿**أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**﴾.

أولئك:

وفي قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**﴾ يلاحظ: أنه لم يقل: «**هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**»، بل جاء بكلمة: ﴿**أُولَئِكَ**﴾ قبلها، وهي للإشارة للبعيد..

ولعل السبب في ذلك: أن الله تعالى أراد أن يبعدهم عن مقام الكرامة، ويطردهم عن ساحة الحضور..

هم، لماذا؟!:

ثم إن الحديث عنهم بضمير الغائب في قوله: ﴿**هُمْ**﴾.. بعد أن واجههم، وتوعَّدهم بأربعة زواجر، ليدل على ضرورة إبعادهم، والإبتعاد عنهم، وأن يكون الإبتعاد عنهم، إلى الحد الذي لا يرى فيه الشخص، ولا يظهر الأثر..

وكلمة ﴿**هُمْ**﴾ هنا لها أهميتها، حيث لم يقل: «**أُولَئِكَ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**»، لأن هذه العبارة لا تمنع من أن يكون غيرهم شر البرية أيضاً، فإن إثبات شيء لشيء لا يعني نفيه عمن عداه.

ولكنه حين قال: ﴿**أُولَئِكَ هُمْ**﴾، يكون قد حصر الأشرِّيَّة في البرية بهم، فإذا كان ثمة كفَّار آخرون يعذبون في نار جهنم، فإنهم ليسوا أشر البرية، فلا يصل عذابهم، ودرجة شعورهم بالألم، إلى مستوى ما يعانيه شر البرية.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾.

لا ربط بين هؤلاء وأولئك:

إن أول ما يواجه المتأمل في هذه الآيات المباركة: أنه تعالى لم يعطف هذه

الآية على سابقتها، كما ربما يتوقعه البعض، لما يراه من تناسب عطف الحديث عن إحدى الطائفتين المتقابلتين في المسار والمصير والآثار على الأخرى، ليتوجه الذهن إلى المقارنة بينهما في المآل، وفي سائر الأحوال.

ويجاب:

بأنه تعالى لا يريد أن يجعل أهل الإيمان في كفَّة، والكفَّار والمشركين في كفة تقابلها، فإن ذلك لا يليق بمقام أهل الإيمان، كما أنه قد يفهم من قِبل بعض المغفلين، أو أصحاب الأغراض أن الفرق بين الفريقين، وإن كان غير قابل للإنكار، ولكن الموازنة والمقارنة بينهما تشير إلى أن الفوارق ليست كبيرة، أو خطيرة إلى الحد الذي ينتهي بهما إلى التباين المطلق في جميع الأمور، وإلى أقصى المراتب..

ولأجل ذلك اختار تعالى: أن يجعل أهل الإيمان هم في أعلى الدرجات، وهم الأصل الأصيل، والخير والصلاح، والنجاح والفلاح.

ويكون المشركون والجاحدون من أهل الكتاب، المعتدون بكفرهم وشركهم على الكرامة الإلهية، والمتجرؤون على الهيبة والعظمة والتفرد الإلهي، هم شر البرية، فكيف إذا كان الشرك يتمثل بعبادة حجر، أو شجر، أو نحو ذلك.. فإن كفراً بهذا القبح والبشاعة والشناعة يكون هو الآخر في أعلى درجات السوء والشر والخزي..

وبذلك يكون قد حفظ لأهل الإيمان مقامهم، وكرَّمهم، ونزههم، حتى عن إحضارهم إلى الذهن في لحظة حضور شر البرية فيه..

إن الذين آمنوا:

وكما قلنا فيما سبق: إن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾.. يشير إلى أنهم

اختاروا الكفر، عن التفات، وباختيار منهم، وهو ثمرة قرارهم، ولم يكفروا عن غفلة، أو عن تقليد، أو لعدم مبالاتهم، أو لغير ذلك..

فإننا نقول نفس هذا المعنى بالنسبة لقوله تعالى هنا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾.. فإنهم اختاروا الإيمان عن بصيرة والتفات، واختيار وقرار بعد تفكر، وتمييز، وعن رغبة، وقناعة..

وهذا هو سر هذا التكريم والتعظيم، والتشريف، والثناء من الله تعالى على المؤمنين..

وعملوا الصالحات:

ونصل إلى قوله تعالى: ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾، فيواجهنا سؤال يقول: لماذا قال بالنسبة للمؤمنين: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾.. وحين تكلم عن الذين كفروا لم يشر إلى عملهم السيئات، بل لم يشر إلى أي نوع من أنواع الأعمال منهم بشيء، فلماذا؟!

ونجيب بما يلي:

إنه تبارك وتعالى حين تحدث عن الكافرين قد بيّن: أن نفس كفرهم وشركهم هو الذي أرداهم، وجعلهم جهنميين، وسلب عن أعمالهم العبادية، كالصلاة والصوم صفة الخيرية، التي توصف بها، لو أنها كانت قد صدرت من المؤمنين.. فصلاتهم وصومهم، وعباداتهم ـ مع كفرهم وشركهم ـ لا تكون لله تعالى.. لأن قبولها منهم مشروط بإيمانهم به، وبتوحيده.

كما أن أعمالهم الأخرى كالصدقات، وإصلاح ذات البين، والوفاء بالوعد، والعهد، وغير ذلك لم يقصدوا بها وجه الله، لأن المشرك والجاحد للحق،

وللنبوة الحقة لا يستحق الكرامة، وكفره أوجب حبط أعماله.

ولو أنه قال في الآية الأولى: «إن الذين كفروا وعملوا السيئات»، لتوهم متوهم: أن الكافر قد يعمل الخيرات، مع أن كفرهم يمنع من اتصافها بالخيرية، وتقع محبطة، خالية من الثواب، وقد قال تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾[1].

فإذا كان رفع الصوت فوق صوت النبي «صلى الله عليه وآله» موجباً لحبط الأعمال، فما بالك بمن جحد النبوة عن علم والتفات، مع وجود المعجزات بمنظر منه ومسمع؟!

وقد قال تعالى أيضاً: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ**﴾[2].

خير البرية:

وعن المراد بكلمة ﴿**خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾ نقول:

إن المراد بكلمة «الْبَرِيَّةِ»: هو كل من وما خلقه الله تعالى، وبرأه بعد أن لم يكن.. سواء أكان من الإنس، أو الجن، أو الملائكة، أو أي نوع من أنواع المخلوقات التي يصح وصفها بالخيِّرة، أو الشريرة.

المراد بالإيمان:

يقتنع الإنسان: بأن الإثنين نصف الأربعة، لا يشك في ذلك، لكنها قناعة

---

(1) الآية 23 من سورة الفرقان.

(2) الآية 18 من سورة إبراهيم.

عقلية، وإدراك، وانكشاف، ولا يتجاوز هذا الحد، ولا يدخل في نطاق الإيمان، لأنه لا يحقق للإنسان سعادة، ولا فوزاً، ولا أمناً.. ولا يمنحه سكينة، وطمأنينة، وغير ذلك مما يتوخاه الإنسان من فعل الإيمان..

ولكنه إذا تيقن بوجود إله عالم خبير، وقادر حكيم.. خالق، ورازق، ومدبر، وله دين وشريعة، وأمر، ونهي، فيجب عليه فوق هذه القناعة: أن يخضع، ويستسلم، ويلتزم بمقتضيات العبودية والألوهية، ويتبنَّاها، ويحتضنها في قلبه، وينصرها بيده ولسانه، ويكون معها قلباً وقالباً، وظاهراً وباطناً.. وهذا هو الإيمان بما له من مراتب وأحوال..

فالمعرفة مقدمة للإيمان الذي يرتب التزامات.. ويستتبع مطالبات، وبعدها عقوبات ومثوبات..

ولأجل ذلك يأتي قوله تعالى: ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ كنتيجة طبيعية تتبع الإيمان في أي اتِّجاه، وأي حال، لأنه كلما حصل إيمان انبثق عنه عمل صالح.

الصالحات:

والأعمال الصالحة هي المتوافقة مع أهداف وأغراض الشارع، والمتناسبة والمنسجمة مع السنن، ونظام التكوين..

والعمل الصالح قد يكون عبادياً في ذاته، وقد يكون غير عبادي في ذاته، ويصير عبادة بانضمام أو بإيجاد صلة له بالمطلق، من خلال النية، والإضافة، والإنتساب.. أعني نية الطاعة والإنقياد له تعالى.. وإضافة ونسبة الفعل إليه، لاستدراج المثوبة والمغفرة، والتوفيق، مثل بذل المال للمحتاجين، ومعونتهم، والسعي في حلِّ مشاكلهم، والإصلاح بينهم طلباً لمرضاة الله تعالى..

الفصل السادس

الجزاء.. والمصير..

بداية:

إن نفس الكفر للكافر يدخله النار.. أما المؤمن، فإيمانه يجعل الجنة مصيراً له، لأنه اختاره، وهو من أعماله الجوانحية، ثم ترتفع درجاته في الجنة، بحسب ما قدمه لها من أعماله الجوارحية الصالحة أيضاً..

قال تعالى بعد أن ذكر عذاب الكافرين، المنكرين للآخرة: ﴿**قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا**﴾[1].

وبعدما تقدم نقول:

جزاء المؤمن العامل:

ثم قال تعالى: ﴿**جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾.

وقد تضمنت هذه الآية المباركة بيان ما أعده الله تعالى لمن وصفهم: بأنهم خير البرية، الذين هم المؤمنون.. وقد تضمنت أموراً كثيرة نرى أنفسنا ملزمين بالإقتصار على بعضها..

وأول ما يثير الإنتباه: أن الله تعالى لم يذكر في هذه السورة جزاء للمشركين، وإنما تحدث عن جزاء المؤمنين فقط.. مع أنه ذكر في آيات في سور أخرى جزاء

---

(1) الآية 15 من سورة الفرقان.

المشركين أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ**﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا**﴾[2].. فكيف نفهم ذلك؟!

ونجيب:

بأن هناك أمرين:

أحدهما: كفر الكافر الذي ينتج عنه: أن يكون مصيره إلى النار بصورة تلقائية، ولاسيما الجاحد للحق، الظاهر له من أهل الكتاب، والمشرك.. ولم يتحدث هنا عن أنه تعالى هو الذي يجازيه على كفره، بل جعل النار ثمرة طبيعية للكفر..

فاعتباره جزاءً في بعض الآيات، إنما هو باعتبار أنه ثمرة مكروهة، ومؤلمة للكافر، فهي جزاء كفره، لأنها مفروضة عليه، كما يفرض الجزاء على كل مجرم رغماً عنه، وإن لم يرده.. وفرضه عليه إنما هو باعتباره سُنَّة إلهية، من حيث إنه تعالى جعل ذلك ثمرة للكفر، يتبعه ويكون معه أينما توجه، وحيثما حلَّ.

ويشهد لهذا المعنى: أن بعض الناس قد صدر منه أمر مبغوض لله تعالى من قول، أو فعل بحضرة النبي، فقال له «صلى الله عليه وآله»: تنحَّ عني، لا تحرقني بنارك[3].. مع أنه لم يكن هناك نار ظاهرة.. فإن الفعل نفسه هو الذي

---

(1) الآية 17 من سورة سبأ.

(2) الآية 106 من سورة الكهف.

(3) الخرائج والجرائح ج2 ص582 وجامع السعادات ج2 ص86 وإحياء علوم الدين ج10 ص44 والمحجة البيضاء ج6 ص75. وراجع: روضة المتقين ج10 ص227 والأمالي للصدوق ص99 وروضة الواعظين ص480 ومستدرك الوسائل ج12

أنشأ النار، وأوجدها بدرجة من درجات النشوء.. فكأنه تعالى لم يتدخل، ولم يجاز، بل جاء العذاب للكافر وفق السنن.

الثاني: الجرائم التي يرتكبها الكافر، والإفساد الذي يمارسه، كالصد عن الحق، وتشكيك الناس، وظلمهم، والعدوان عليهم في أنفسهم، وأموالهم، وغير ذلك.. فهذا له جزاء مرسوم يتناسب مع حجمه وقبحه، وما يحدثه من إفساد، وغير ذلك.. وحيث إن الكلام في هذه السورة عن الكفر، وأثره في جعله صاحبه جهنمياً، وفي إحباطه الأعمال، وبوارها بهذا الكفر، أو جعلها عديمة الفائدة له، بل تكون كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، فلم يبق مورد للحديث عن أثر لها في الجزاء الأخروي.

فالأعمال الصالحة للمؤمنين هي التي يكون الجزاء عليها، وتوجب للمؤمن المزيد من النعيم، والمقام العظيم، والمزيد من التشريف والتكريم..

وأما السيئات التي قد تصدر من بعض المؤمنين، فالتوبة تمحوها، وبالشفاعة يتم تجاوزها، لأنهم أهل للشفاعة..

عند ربهم:

ويلاحظ هنا: أنه تعالى قال: ﴿**عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾، ولم يقل: جزاؤهم من ربهم، كما أنه لم يقل: من الله، فلماذا؟!

كما أنه بالنسبة للكافر والمشرك لم يشر إلى هذا الأمر.

ولعل سبب ذكر هذه العندية هنا:

ص134 وبحار الأنوار ج6 ص25 وشجرة طوبى ج1 ص203 والبرهان (تفسير) ج1 ص692 ونور الثقلين (تفسير) ج1 ص392.

أولاً: أن التكريم هو إعزاز من الله، وليس هو ثمرة طبيعية، وإجراء سُنَّة ثابتة، حيث يكون العمل فيها هو المكون لها، كما أثمر الكفر ابتلاء الكافر بالنار.

ثانياً: إن كلمة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ تفيد: أنهم (أعني المؤمنين) ينالون شرف الحضور بمحضره تعالى، ويفوزون برعاية ولطف خاص منه. وكان لهم هذا التنويه بمقامهم، والتشريف لهم..

ولو قال تعالى: «من ربهم» لم يدل على هذا الحضور التشريفي، فلعلهم حصلوا على جزائهم، كما يحصل عليه سائر من يعمل عملاً له جزاء.

ثالثاً: إن هذه العندية قد أفسحت المجال، وأطلقت الخيال بكل قوة، لإدراك العطاءات والتفضلات، وأنواعها، وعظمتها.. وأنى له أن يدرك شيئاً من ذلك.

وقد قال تبارك وتعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، ولم يقل؛ «عند الله»، فلأن مقام الربوبية يعطي معنى التكفل، والرعاية، وهو الذي تنبثق عنه هذه العطاءات الجليلة والجميلة. كما أن رعاية وتربية الله للمؤمنين هي التي أوصلتهم إلى هذه المنزلة الرفيعة، فقد أحسن إليهم بخلقه لهم، ثم أتحفهم بالهدايات والدلالات، ونمّاهم، وزكاهم، ومنحهم الكمالات، حين استجابوا له، فبلغوا هذه الدرجات بفضله وعونه.

كما أن كلمة الربوبية تُشعر بالحنان والرعاية، والتربية.. وهذا الشعور يلذّ لهم ويؤنسهم، ويربط على قلوبهم، ويمنحهم الرضا، والسكينة.. وهو أيضاً ينعش آمالهم، ويمنحهم القوة، ويضبط حركتهم، لاسيما مع علمهم بأنه تعالى قادر على كل شيء، وعالم بكل شيء، وبيده كل شيء.. وهذا المعنى تعطيه كلمة «الرب» أكثر من كلمة «الله» بالنسبة للإنسان العادي.

ولكن هذا لا يمنع الرب الحريص على العبد من مجازاة عبده على ذنوبه، وخروجه عن زي العبودية والطاعة.

فإن لهذا الجزاء فوائد وعوائد جليلة أيضاً..

وإضافة كلمة «الرب» إلى ضمير المربوب، فقال: ﴿رَبِّهِمْ﴾، ولم يقل: «عند الرب»، ليشعر بقربه منهم، وعدم انشغاله بغيرهم، وعدم صرف نظره عنهم.

جنَّات:

ثم ذكر الله تعالى: أن من جملة مفردات الجزاء للمؤمنين «الجنَّات» التي يمنحهم الله إياها.

ونلاحظ في هذا المورد أموراً:

إحداها: أنه تعالى حين تحدث عن الكافرين قال: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ بصيغة المفرد، ولكنه بالنسبة للمؤمنين قال: «جنَّات» بصيغة الجمع.. وهذا مما يزيد في بهجة المؤمنين، وظهور علو منزلتهم في الآخرة، ويزيد في حسرة من كفر وجحد، وأشرك.

الثاني: أنه ذكرها منكَّرة، فبقرينة: أن المقام مقام التفضلات الإلهية لا بد أن نفهم: أن هذا التنكير لكلمة جنَّات يهدف إلى إطلاق الفكر في رحاب عظمة وكثرة هذه العطاءات، والتفضلات الجميلة والجليلة، ليظهر عجز العبد عن إدراك مداه، ليكون هذا العجز عن الإدراك سبباً لبقاء الذكرى، وبقاء درجة الهيبة والجلال في النفوس، لأنهم تلقوها على صفة الرحابة والإطلاق، فتبقى على هذه الصفة في نفوسهم.

الثالث: إن كثرة الجنَّات يقتضي وجود فوارق بين لذَّاتها وحالاتها، إذ

لو كانت على صورة واحدة، فلا فائدة من تعددها، ولا معنى لتكثيرها بصيغة الجمع: ﴿جَنَّاتُ﴾.. فلا يبعد أن يكون سبب تعدد الجنَّات أن الملذَّات متنوعة، وكثيرة، مثل: التلذذ بأنواع الطير والحيوان البري، والبحري، والتلذذ بالهواء وبالماء، وبالرياضات، وبالأشربة والأطعمة المختلفة، بالإضافة إلى النعيم النفسي، والجسدي، وإلى نعيم المناظر الخلابة، وإلى نعيم المشمومات، والمسموعات، وأنواع أزهارها، وأشجارها، وأطيارها، وأنهارها، وسائر مكوناتها.

وهناك التلذذ بلقاء الأحبة، ومجالسة العلماء، والقرب من الأنبياء والأوصياء، والشهداء.. وهناك التلذذ بالرضوان الإلهي.. إلى غير ذلك مما يتعذر إحصاؤه، أو الإحاطة به.. ولأجل ذلك كثّرت الجنَّات.

عدن تجري من تحتها الأنهار:

وقد وصف الله تعالى الجنَّات: بأنها ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي جنَّات إقامة وبقاء، واستمرار، وثبات.. وهذه الكلمة ـ أعني كلمة عدن ـ هي الإشارة الأولى للبقاء والخلود في الجنة، بل إن نفس جعل الجنة جزاء للمؤمنين على أعمالهم الصالحة يستلزم صيرورتها موضع إقامةٍ لقاطنيها، وأنها لا تنزع منهم، لأن الجزاء لا يسترد، ثم جاءت التأكيدات الأخرى على الخلود، كما سنرى.

ثم ذكر بعض صفات تلك الجنات، فقال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾، وكلمة ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾، ربما للإشارة إلى أن موقع ساكنيها يعطيهم الإشراف والهيمنة، والقدرة على الإحاطة، مع القدرة على ضم غيرها إليها من أطيار وأشجار، وجبال وشعاب، وغابات، وحدائق، وغيرذلك.. لتتكامل الصورة الجمالية، ثم تتلاقى مع تلك الأنهار..

وهذا يدلنا على السبب في قوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾، ليدل على جهة الجريان، وأن الأنهار لا تجري تحت الجنان، بل فيها، ولكن بنحو يتحقق معه الإشراف والتلذذ بها على هذه الحال.

ونضيف هنا أمراً آخر، وهو: أن تعدد الأنهار المتشابهة أمر غير محبب، وقد لا يزيد في الأنس والبهجة ما يبرر هذه الكثرة، وهذا يعطي وجود شيءٍ آخر منضم إلى هذا التعدد في الأنهار، وهو اختلاف جوهر وحقيقة ما يجري فيها.. وهو ما يشير إليه في آية في سورة أخرى، ذكرت وجود أنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من عسل مصفى، وأنهار من ماء غير آسن، قال تعالى في بيان هذه الأنهار: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾[1].

خالدين فيها أبداً:

وطبيعي: أن غريزة حب البقاء موجودة لدى الإنسان، فكيف إذا كان هذا البقاء في الجنة؟!

وكيف إذا كان بقاء لا يشوبه توقع، أو احتمال المفاجأة بالإنقطاع والزوال، إذا لم يكن ثمة ما يزيل هذا الإحتمال، ويحوِّل ذلك البقاء إلى بقاء يساوق الخلود؟!

ولذلك قال: ﴿خَالِدِينَ﴾. والخلود هو البقاء والإستمرار للشيء، من دون أن يعرض له تغير وفساد، أو نقص، أو آلام، بل يكون خلوداً هانئاً، رغيداً، وحميداً.

(1) الآية 15 من سورة محمد.

وقد قال تبارك وتعالى: ﴿**وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا**﴾(1)، فوصفهم بالمخلدين ليدل على عدم تغير أحوالهم، وصفاتهم، وسماتهم..

فيها:

ولم يكتف بذلك، بل أضاف بياناً آخر بقوله: ﴿**فِيهَا**﴾ ليزيد الشعور باللذة للمؤمنين، وبالحسرة للكافرين.. الذين يكونون خالدين في العذاب المهين..

ومن المعلوم: أن الخلود قد يكون في الجنة، وقد يحصل في غيرها، لكن الخلود في الجنة هو الأغلى، والأسمى، لأنه يدل على أن اللذة والنعيم بنعم الله ستبقى مصاحبة لهذا الخلود، فلا مورد للشعور بالوحدة، أو الوحشة، أو الهم، أو الغم، أو توقع انقطاع اللذة، أو انخفاض مستواها..

ثم أضاف تعالى إلى ذلك قوله: ﴿**أَبَدًا**﴾، ربما لكي لا يتوهَّم متوهِّم: أن المراد بالخلود: هو الخلود بمقدار الأحقاب، لقوله تعالى: ﴿**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**﴾(2)، أو الخلود المرهون ببقاء السماوات والأرض مثلاً لقوله تعالى ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**﴾(3)، ولعلهما لا تبقيان، إلى الأبد، وإن بقيتا زمناً طويلاً جداً قد يصل إلى مليارات السنين.

فجاء قوله: ﴿**أَبَدًا**﴾ ليزيل هذا التوهم، وليكون المراد من قوله: ﴿**مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**﴾ هو فسح المجال، وإزالة الحدود والعوائق أمام الخيال

---

(1) الآية 19 من سورة هل أتى.

(2) الآية 23 من سورة النبأ.

(3) الآية 107 من سورة هود.

البشري، ليخرجه إلى العالم الأرحب، وإن كان يعسر عليه تجاوز تلك الحدود، إلى ما هو أبعد منها، فإن الخيال غير قادر على تصور المطلق بما له من معنى حقيقي ودقيق..

فذكر بقاء السماوات والأرض ما هو إلا توسعةً للمدى الذي يسبح فيه هذا الخيال، ووضعه على مشارف مرحلة أبعد وأرحب.

رضي الله عنهم، ورضوا عنه:

ثم توَّج تلك النِّعم بالنعمة الأفخم، والأعظم، وهي نعمة الرضوان الإلهي الذي قال تعالى عنه في آية أخرى: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ**﴾[1]، وربما كان المقصود بهذا الرضوان هو الرضا الإلهي عن اعتقادات، وفكر، وتوازن، وكمال، وسلوك، ومعرفة، وتطبيق أحكام الله، ومزيد حبهم له ولأنبيائه، وأصفيائه، وغير ذلك من حالات هؤلاء المؤمنين.

فهم النموذج الأرقى للإنسان الكامل والقوي، الذي أوكل الله إليه مهمة إعمار هذا الكون.

وإذا رضي الله عن عبده، فإن جميع صفات الربوبية التي أشير إليها في دعاء الجوشن ستثمر بركات ونعماً، ورعاية لمن رضي الله عنهم.

1 ـ وهذا الجزاء الذي يعطى للمؤمنين بهذا النحو التكريمي، هو النعيم الروحي الأكبر، والأفخم، والأعظم، من نعيم الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، ولو كانت جنات عدن.. وهو نعيم الشعور بالرضا الإلهي، وقد قال

(1) الآية 72 من سورة التوبة.

تعالى في آية أخرى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾[1]. أي أكبر من كل نعيم.

2 ـ ويلاحظ هنا أنه قال: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾[2]، ولم يقل: «رضي ربهم عنهم»، لأن مقام الربوبية مقام رحمة ورعاية، وإخراج من حالة الضعف والعجز والحاجة والنقص.. إلى ما هو أغلى وأعلى.

أما مقام الألوهية، فهو مقام العظمة والكبرياء الإلهي، والقدرة، وما إلى ذلك والرضا الحاصل من مقام الألوهية هو الذي يعطي الطمأنينة والسكينة والقوة، والثبات والسعادة بأعلى مراتبها، وأفضل حالاتها.

3 ـ والمراد برضى الله عنهم: هو أنه يفعل بهم ما يدل على رضاه عنهم، فينتزع معنى الرضا من هذا الفعل، ثم ينسبه إليه تعالى بما هو صفة للفعل، لا للحالة النفسية..

4 ـ وعن رضى المؤمنين عن الله نقول:

يبدو لنا: أنه ناظر إلى رضاهم واغتباطهم برضاه تعالى عنهم، لأن هذا الرضى هو أعظم النعم عليهم.. وهو أغلى وأسمى أمنياتهم، وهو حالة نفسية لهم.. وهم راضون بما قسم الله لهم، لاعتقادهم بأنه وفق الحكمة، وأنه بموازين عدل وإنصاف، وأن كل ما يعطيه لعباده، فهو تفضُّل منه، وكرم.. كما أنهم واثقون به، متوكلون عليه، مسلِّمون له، ملتجئون إليه، لا يطمحون إلى أزيد

---

(1) الآية 72 من سورة التوبة.

(2) الآية 119 من سورة المائدة.

مما حباهم به.. إذ ليس فوق عطائه عطاء، وليس لغير عطائه بقاء، ولا تتحصل به سعادة ولا هناء.

ذلك لمن خشي ربه:

1 ـ وكلمة ذلك في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ للإشارة إلى البعيد باعتبار أن ذلك الجزاء العظيم، مما تعجز العقول والأفهام عن معرفة حجمه وكنهه ومداه.. ثم أثبت تعالى هذا الجزاء لكل من خشي ربه، فدلنا بذلك: أن هذا الجزاء ليس حكراً على أشخاص بأعيانهم، بل هو يمثل نهجاً وضابطة عامَّة ومحدَّدة، يستطيع كل إنسان أن يستفيد منها بجدِّه وجهده، وأن يصل إليها بسعيه، وكدِّه.

فإذا انحصرت بثلَّة قليلة من الأنبياء والأوصياء، والأبرار الأخيار ممن سار على نهجهم، واتَّبع سبيلهم، فذلك إنما كان باختيار وقرار من أولئك الناس، ثم بتوفيق وتسديد من الله لهم، ولم يكن هناك جبر أو قهر على هذا الأمر.

2 ـ ثم ذكر: أن الدافع لهم إلى هذا السعي الذي بلَّغهم هذا المقام هو التقوى والخشية من ربهم.. وهذا هو بيت القصيد، فإن المعرفة، والوعي، والتوازن، والبناء الروحي، والبصيرة النافذة هو المنشأ لهذه الخشية، التي حققت له كل هذه الإنجازات.

3 ـ هناك خوف.. وهناك خشية..

فأما الخوف، فهو حالة ضعف في الخائف، حين يحتمل، أو يظن، أو يقطع بوجود قوي يتربص به، ليلحق به ضرراً.

أما الخشية، فهي نتيجة الشعور بعظمة المخشي، سواء أكان الذي يخشى

ضعيفاً، أو قوياً، كبيراً أو صغيراً، غنياً، أو فقيراً، عالماً، أو جاهلاً..

والخشية هنا في هذه الآية المباركة: هي الشعور بالعظمة والقدرة الإلهية، فيخشى المؤمن التقي من أن يكون مقصراً في حقه تعالى، أو في مدى الإعداد والإستعداد للحساب، ولذا قال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[1]. لإشفاقهم من التقصير في حقِّه تعالى، بعد معرفتهم ببعض جوانب عظمته تعالى.. وطبيعي: أن تكون خشية كل عالم لله تعالى متناسبة مع مقدار علمه وإدراكه للعظمة الإلهية..

وأما الخوف من الله، فإنما يكون من العاصي والمتمرد.

4 ـ وعبر بالفعل الماضي، فقال: ﴿**خَشِيَ**﴾، لأن الحديث عن الآخرة، بملاحظة ما كان عليه في الدنيا.. ولعل هذا يفيد: أن هذه الخشية ينبغي أن ترافقه في حياته الدنيوية كلها.

5 ـ ونلاحظ: أنه تعالى لم يقل: «لمن خشي الله»، بل قال: ﴿**لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾.. ويبدو: أن السبب في ذلك: أن الإنسان غير المتوازن، والباحث عمَّا يلبي شهواته، وينسجم مع أهوائه، وتتطلبه غرائزه، يغترّ بربه، وهو يرى نعمه التي لا تحصى تفيض عليه من كل جانب، بل هو يعجز عن إحصاء تلك النعم.

قال تعالى: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ**﴾.

ويقول عز وجل: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾. ويرى أنه برغم كل

---

(1) الآية 28 من سورة فاطر.

ارتكاباته ومعاصيه لربه وتمرده عليه، لا يقطع النعم والعطايا عنه، فيغترّ بربه، ويتكاسل ويتهامل في طاعته، ولا يهتم بالعمل بما يرضيه، ولا ينتهي عما ينهاه عنه.. فيهلك، وتهلك معه آماله، وطموحاته، وتبور وتتلاشى أحلامه.

فلو أنه خشي ربه لم ينته به الأمر إلى الهلاك والبوار، بل كان مع الأخيار والأبرار، في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار.

ونلفت النظر أخيراً إلى أن كلمة ﴿رَبَّهُ﴾ تناسب الخشية، ولو استبدلت كلمة ﴿رَبَّهُ﴾ بكلمة «الله»، لكان المناسب استبدال كلمة ﴿خَشِيَ﴾ بكلمة «خاف»، لأن مقام الألوهية ينسجم مع كونه تعالى إلهاً قادراً، حاكماً، مهيمناً، مالكاً، محاسباً، معاقباً الخ.. ومن عاش هذا الشعور، فإنه سوف يستبد به الخوف من تقصيره، ثم من عواقب أفعاله، وسيئات أعماله..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطيبين الطاهرين..

كلمة أخيرة:

وبعد.. فإننا لا ندَّعي أننا أدركنا شيئاً ذا بال مما تكفَّلت هذه السورة المباركة ببيانه، بل نحن لا ندَّعي: أننا أصبنا كبد الحقيقة في جميع ما قلناه، فلعلنا اخطأنا في بعض الموارد، أو أوغلنا بعيداً في الإستنتاج، وتجاوزنا الحدَّ فيه، فإننا كما لا ندَّعي العصمة لأنفسنا، لا ندَّعي أيضاً أننا كشفنا كل الحقيقة، فنحن بين أمرين، هما:

ـ إما أن نكون قد أصبنا، فيكون الفضل من الله والمنَّة له علينا بذلك، بسبب رحمته بنا، وتوفيقه لنا.

ـ وإما أن نكون قد أخطأنا الحقيقة، أو تجاوزنا الحدود، فذلك لقصورنا، أو تقصيرنا..

فنسأل الله أن يسددنا، ويمنحنا المزيد من الرضا والتوفيق..

وختاماً، فإن رجاءنا الأكيد ممن يطَّلع على ما كتبناه في هذا الكتاب، وفي غيره: هو أن يتحفنا بما يرى أنه يحتاج إلى تصحيح، أو توضيح، وسنكون له من الشاكرين، وإليه من المعتذرين..

والحمد لله رب العالمين..

27 جمادى الأولى 1439هـ ق

14 شباط 2018م ش

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

الفهرس

كتب مطبوعة للمؤلف

1ـ الآداب الطبية في الإسلام
2ـ ابن عباس وأموال البصرة
3ـ ابن عربي سنيّ متعصب
4ـ الأبواب في عهد الرسول ’: نصوص وآثار..
5ـ أبو ذر لا إشتراكية.. ولا مزدكية
6ـ أحيـوا أمـرنا
7ـ إدارة الحرمين الشريفين في القرآن الكريم
8ـ أسئلة وردتنا
9ـ إسرائيل.. في آيات سورة بني إسرائيل.. تفسير ثمان آيات..
10ـ الإسلام ومبدأ المقابلة بالمثل
11ـ الإعتماد في مسائل التقليد والإجتهاد (صدر منه جزء واحد)
12ـ أفلا تذكرون «حوارات في الدين والعقيدة»
13ـ أكذوبتان حول الشريف الرضي
14ـ الإمام علي والنبي يوشع ‘
15ـ أهل البيت ^ في آية التطهير
16ـ أين الإنجيل؟!
17ـ بحث حول الشفاعة
18ـ براءة آدم × حقيقة قرآنية
19ـ براءة يونس × في القرآن الكريم
20ـ البنات ربائب.. قل: هاتوا برهانكم
21ـ بنات النبي ’ أم ربائبه؟!

22ـ بيان الأئمة وخطبة البيان في الميزان
23ـ تحقيقي در باره تاريخ هجري
24ـ تخطيط المدن في الإسلام
25ـ تفسير سورة ألم نشرح
26ـ تفسير سورة البيِّنة (هذا الكتاب)
27ـ تفسير سورة التكاثر
28ـ تفسير سورة التوحيد (الإخلاص)
29ـ تفسير سورة التين
30ـ تفسير سورة الضحى
31ـ تفسير سورة العاديات
32ـ تفسير سورة الفاتحة
33ـ تفسير سورة الفلق
34ـ تفسير سورة الكافرون
35ـ تفسير سورة الكوثر
36ـ تفسير سورة الماعون
37ـ تفسير سورة المسد
38ـ تفسير سورة الناس
39ـ تفسير سورة النصر
40ـ تفسير سورة هل أتى (جزءان)
41ـ توضيح الواضحات من أشكل المشكلات
42ـ الجزيرة الخضراء ومثلث برمودا؟!
43ـ الحاخام المهزوم
44ـ حديث الإفـك
45ـ حقائق حول القرآن الكريم
46ـ حقوق الحيوان في الإسلام
47ـ الحياة السياسية للإمام الجواد ×
48ـ الحياة السياسية للإمام الحسن ×

49ـ الحياة السياسية للإمام الرضا ×
50ـ خسائر الحرب وتعويضاتها
51ـ خلفيات كتاب مأساة الزهراء ÷ (ستة أجزاء)
52ـ دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام (أربعة أجزاء)
53ـ دراسة في علامات الظهور
54ـ دليل المناسبات في الشعر
55ـ ربائب الرسول ’ «شبهات وردود»
56ـ رد الشمس لعلي ×
57ـ زواج المتعة (تحقيق ودراسة) (ثلاثة أجزاء)
58ـ الزواج المؤقت في الإسلام (المتعة)
59ـ زوجات الإمام الحسن ×: أكاذيب وحقائق
60ـ زينب ورقية في الشام!!
61ـ سلمان الفارسي في مواجهة التحدي
62ـ سنابل المجد (قصيدة مهداة إلى روح الإمام الخميني وإلى الشهداء الأبرار)
63ـ السوق في ظل الدولة الإسلامية
64ـ سياسة الحرب في دعاء أهل الثغور
65ـ سيرة الحسن × في الحديث والتاريخ (المجتبى من سيرة المجتبى) صدر منه 7 أجزاء
66ـ سيرة الحسين × في الحديث والتاريخ (أربعة وعشرون جزءاً)
67ـ شبهات يهودي
68ـ الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة
69ـ الصحيح من سيرة الإمام علي × (ثلاثة وخمسون جزءاً)
70ـ الصحيح من سيرة النبي الأعظم ’ (خمسة وثلاثون جزءاً)
71ـ صراع الحرية في عصر الشيخ المفيد
72ـ طريق الحق (حوار مع عالم جليل من أهل السنَّة والجماعة)
73ـ ظاهرة القارونية من أين؟! وإلى أين؟!
74ـ ظلامة أبي طالب ×
75ـ ظلامة أم كلثوم
76ـ عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفياني
77ـ عصمة الملائكة بين فطرس.. وهاروت وماروت

78ـ علي × والخوارج (جزءان)
79ـ عهد الأشتر مضامين ودلالات (جزءان)
80ـ الغدير والمعارضون
81ـ القول الصائب في إثبات الربائب
82ـ كربلاء فوق الشبهات
83ـ لست بفوق أن أخطىء من كلام علي ×
84ـ لماذا كتاب مأساة الزهراء ÷؟!
85ـ مأساة الزهراء ÷ (جزءان)
86ـ مختصر مفيد (أسئلة وأجوبة في الدين والعقيدة)، (ثمانية عشر جزءاً).
87ـ مراسم عاشوراء «شبهات وردود»
88ـ المسجد الأقصى أين؟!
89ـ المعجزات: رقي وغايات، للبشر في الحياة
90ـ مقالات ودراسات
91ـ من شؤون الحرب في الإسلام
92ـ منطلقات البحث العلمي في السيرة النبوية
93ـ المواسم والمراسم
94ـ موقع ولاية الفقيه من نظرية الحكم في الإسلام
95ـ موقف الإمام علي × في الحديبية
96ـ ميزان الحق «شبهات وردود» (أربعة أجزاء)
97ـ نقش الخواتيم لدى الأئمة ^
98ـ وقفات مع ناقد
99ـ الولاية التشريعية
100ـ ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة